اللسان فى البيان الحكيم
موقعاً ودلالة

دراسة بلاغية تحليلية

اعـــداد

د/ شحاته عبدالرازق أبوشوشه

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

تقديم

إذا كانت الدراسات البلاغية من أهم الدراسات وأرفعها، فإنها تزداد عظمة ورقيا ورفعة حينما ترتبط بالبيان الكريم المعجز فى أسلوبه ونظمه، وصوره وإيحاءاتها، وبديعياته وظلالها، وفى علومه وحكمه وهدايته، وقد تحدى الله به بل بسورة منه فما قدر أحد عليه، وما ذلك إلا لعلو بلاغته وجلال فصاحته، وما وراء ذلك من روح وأسرار وأنوار.

واتجهت دراستنا هذه إلى هذا الأعلى والأكرم، لتنال حظها من جماله وجلاله، وتفوز بنصيبها من الرقى والقبول، وموضوعها: **(اللسان فى البيان الحكيم - موقعاً ودلالة – دراسة بلاغية تحليلية)**.

ومن ثم فإن رغبة ملحة، وهمة عالية تملكتنى لسلوك هذا الضرب الأكرم من الدراسات البلاغية، واخترت هذا الموضوع لسببين:

الأول: أنى لم أجد دراسة تناولت هذا الموضوع، والمكتبة البلاغية في حاجة ملحة إليه.

الثاني: الوقوف على دلالتى كلمة اللسان: الحقيقية والمجازية فى العديد من آيات الذكر الكريم، مما يلفت إلى أهمية هذا العضو ودوره الفخم فى حياة الناس، إن خيرا وإن شرا.

ومع هذه الرغبة الملحة فإن الخوف يتملكنى من جلال الموقف، لتعلقه ببلاغة القرآن المبهرة، التى أعجزت كل فصيح، وأخرست كل بليغ، وألهمت أهل الحق وأرباب البيان المنهج الأقوم، والسبيل الأوضح، والمسلك الأعظم، لغة وثقافة ومنهج حياة . ومثلى يكاد يذوب وجلا من التعرض لمثل ذلك. ومن جانب آخر فإنى حذر من الوقوع فى المنهج التفسيرى البلاغى، لما أخبره من فوارق بينه وبين منهج الباحث البلاغى الذى يعتمد دراسة الكلمات صيغاً ودلالة، والوقوف على الأساليب وبيان أوجه إبانتها عن معاينها، وعلاقة اللاحق منها بالسابق، وذلك لأن خصوصيات المعانى تابعة لخصائص التراكيب، ومميزات الأساليب.

كما يقوم الباحث البلاغى لدراسة الصور البيانية والوقوف على دقائقها فى الكشف عن معانيها، وإظهار ظلالها وامتداداتها، وأثر الكلمات التى تتشكل منها، والأساليب التى بنيت عليها.

ويقف على أوجه التنغيم فى الآية أو السورة ومصادره ؛ فهو ميدان كغيره من ميادين البلاغة وأوجه البيان، لكونه رافدا من روافد الإبانة عن المعانى، وإيصالها إلى المتلقى بألطف الطرق، وأحبها إلى قلبه.

وقد حرصت الدراسة فى منهجها على اعتماد هذه المقومات البحثية، مع الوقوف على أمرين:

الأول : الإشارة إلى مقصود السورة وعلاقة الآية التى جاءت كلمة اللسان فى سياقها بهذا المقصود.

الثانى: وجه ارتباط الآية بسياقها، وغرض الدراسة من ذلك التمهيد للآية، ومعرفة وجهتها وهدفها، ليتسق معه التحليل البلاغى لها.

هذا .....

وقد أتى اللسان فى اللغة بمعان متعددة، كالجارحة المعروفة، والكلمة، والرسالة والخبر، والثناء والذكر الحسن، يقول ابن منظور: «اللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى به عن الكلمة فيؤنث حينئذ، قال أعشى باهلة:

إنـــى أتتنـــى لســـان لا أســـربها مـن علـو لا عجـب منهـا ولا سـخر

قال ابن برى: اللسان هنا الرسالة والمقالة، ومثله:

أتتنـــى لســـان بنـــى عـــامر أحاديثهـــا بعـــد قـــول نكـــر

وقد يذكر على معنى الكلام: قال الخطيئة:

نـدمت علـى لسـان فـات منـى فليـت بأنـه فـى جـوف عكـم

وإن أردت اللغة: أنثت. يقال: فلان يتكلم بلسان قومه، واللسان الرسالة، ورجل لسن، بين اللسن: إذا كان ذا بيان وفصاحة،.... واللسن: الفصاحة، وجودة اللسان، وسلاطته، ولسان القوم: المتكلم عنهم... » [1]

(١) لسان العرب / مادة / لسن، وينظر / مقاييس اللغة / ابن فارس / مادة لسن، وأساس البلاغة / الزمخشرى / ١٢ ص ٣٤٠ / مادة / لسن.

فالكلمة ذات دلالة واسعة على معان أصيلة حقيقية، ومعان أخرى مجازية[١]، وقد وردت فى خمسة وعشرين موقعا فى البيان الحكيم[٢]، ومن ثم فإن دلالتها تختلف من موضع إلى آخر، مما دفعنى إلى تقسيم الدراسة إلى مباحث ثلاثة:

الأول: اللسان: ومعنى الجارحة المعروفة .

الثانى: اللسان: ومعنى الثناء الحسن والذكر الجميل

الثالث: اللسان: ومعنى اللغة والبيان

واجتهدت الدراسة أن تقف على خبايا النفوس، ومكنونات الصدور التى كان للسان دور مهم فى الكشف عنها، يضاف إليه ما دل عليه النظم من معان وصور هى قطع من نفوس المتحدث عنهم، وذلك لاستبصار أوجه الهدى ومعالم الرشاد، فما كان من شر وسوء وذم يجتنب، وما كان من خير وفضل يبتغى، وقناعتى أن الدراسة البلاغية فى الفكر المسلم هادية إلى الحق، وموقظة لأحاسيس الإيمان ومشاعر الخير والفضيلة، ودافعة إلى التحلى بالذوق والمروءة، وباعثة على التفكر وتحريك الذهن وتعلم التأمل والتدقيق، فكيف إذا كانت فى ميدان أكرم وأعظم وأخصب، فى البيان القرآنى العظيم ؟!! فما ذكر فيه اللسان إلا وتبصر من ورائه نفوس أصحابه ماثلة أمامك، ترى على صفحاتها ما دعا ألسنتهم إلى التكلم بما سطره النظم الكريم، بل يكاد يريك هيئتهم وشخوصهم وحركاتهم وهم يتكلمون، ليأخذ المتلقى من ذلك عبرة وعظة.

ثم ختمت الدراسة بخاتمة تشتمل على أهم نتائج البحث وزبدته، ثم فهرس بالمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

هذا...

والله أسأل الرضا والقبول فهو ولى ذلك والقادر عليه
وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) ينظر: المجاز المرسل فى لسان العرب لابن منظور / د/ أحمد هنداوى هلال / ص ٧٤ وما بعدها / ط٢ / ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

(٢) ينظر / المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبدالباقى / دار الحديث ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم / مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

المبحث الأول

اللسان: ومعنى الجارحة المعروفة

وردت كلمة اللسان فى البيان القرآنى فى ستة عشر موضعا بمعناها الحقيقى، وهو الجارحة المعروفة، وجاءت فى سياقها تارة مفردة، وتارة جمعا، واختلف موقعها الإعرابى فجاءت – مفردة كانت أو جمعا– مرفوعة ومنصوبة ومجرورة، ووقعت فى سياقاتها العديدة مضافة وغير مضافة.

واختلف المقام الذى وقعت الكلمة فى سياقه، فيرى المتلقى مجيئها فى سياق الذم والتشنيع (ثمانى مرات)، وفى مقام الدعاء والضراعة (ثلاث مرات)، وفى مقام التخويف والترهيب (فى موضعين)، وفى مقام المن والاعتبار (فى موضعين)، وفى مقام التربية والتوجيه (فى موضع واحد).

ونقف هنا على أمرين جديرين بالإشارة، أولهما: كثرة ورود الكلمة فى مقام الذم والتشنيع يرشد إلى خطورة اللسان وما يقود إليه من عظيم الإثم وقبيح الذنب، حتى يكون المتلقى على وعى من ذلك.

وثانيهما: يتيح مجئ الكلمة فى هذه المقامات العديدة البديل للمتلقى، فبذلك يدرك سعة المجالات الصالحة التى يستعمل فيها اللسان وتعددها، كالدعاء والضراعة وما يتبعهما من ذكر وشكر ومدح وثناء، وكقراءة القرآن والمحافظة عليها، إذ كان النبى –ﷺ– يحرك لسانه – كما سيأتى فى موضعه – مع قراءة جبريل عليه السلام حتى لا يفوته شيء إلى غير ذلك، وهذا – إيجاد البديل – منهج أصيل فى التربية والتنشئة الطيبة يلفتنا البيان القرآنى إليه، ويوجهنا إلى أثره فى حياة الناس تيسيرا وتسهيلا، وهو جانب من سعة رحمته تعالى وإحسانه.

البيان والتفصيل:

أولاً : اللسان: ومقام الذم والتشنيع:

أتت كلمة اللسان بمعناها الحقيقة فى سياقات عديدة دالة على الذم والتشنيع، وسنتناول الآيات وفق سياقها الترتيلى.

الموقع الأول: فى سياق سورة (آل عمران)

جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ آل عمران: ٧٨

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تقصد سورة (آل عمران) إلى إثبات الوحدانية وتقريرها، وهى مع تعدد أغراضها ومقاطعها تتجه إلى بيان هذا المقصد وتأكيده من جوانب متعددة(١).

وترتبط الآية بهذا المقصد العام للسورة ارتباطا وثيقا، فهى تعرض نموذجاً من أهل الكتاب المضلين باتخاذهم كتاب الله تعالى مادة للتضليل والإفساد والانحراف، ليحققوا أهدافهم وأهواءهم، والآية بذلك تلفت إلى وجوب تعظيم كتاب الله تعالى، وإجلال كلماته، والإيمان بها دون تعطيل أو تحريف، وهذا جانب من التوحيد الخالص الذى يلتف حوله البيان الكريم فى السورة.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

إذا كان للآية الكريمة هذا الارتباط بالمعنى العام للسورة، فإن ارتباطها بسياقها أظهر وأوضح، وتناسقهما أشد وأعمق (٢)، فقد جاءت ضمن آيات تكشف عن حال أهل الكتاب فى الضلال والكذب، وتبين ما فى هذه الحال من نقائص ومسالب، ولما نسبهم إلى الكذب عموما فى الآيات السابقة نسبهم فى هذه الآية على نوع خاص منه، وهو – كما يقول البقاعى – أكذب الكذب (٣)، لتعلقه

(١) ينظر / نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور / البقاعى / ٢/ ص٣ / دار الكتب العلمية / بيروت لبنان.

(٢) تنظر أصول ارتباط الآيات القرآنية فى / الإتقان فى علوم القرآن / السيوطى / ٢/صـ٣٢٣ وما بعدها ، والنظيم الفنى فى القرآن / عبد المتعال الصعيدى / ص٢٨ وما بعدها / مكتبة الآداب.

(٣) نظم الدرر / ٢/ ص٣.

بالكذب على الله تعالى، فالآية تتآذر مع سياقها فى إظهار المعنى الذى يعرى حال أهل الكتاب، ويكشف سوءتهم .

التحليل البلاغى:

لا يخفى ما للسان من أثر بالغ فى حياة الناس فى الدنيا، وفى حياتهم فى الآخرة، و يكشف نظم الآية جانبا سيئا مذموما لهذا الأثر، حيث يلعب اللسان دوراً كبيرا فى نشر باطل أهل الكتاب، وترويج كذبهم على الله تعالى، وقد أقيم نظم الآية على أسلوب التوكيد بـ (إن) و (اللام) واسمية الجملة (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب) ليتقرر فى نفوس المتلقين انحرافهم بمقاصد الكتاب، واتخاذهم إياه مادة لباطلهم وتضليلهم دون أن يفوت من ذلك شيء، وقدم الجار والمجرور (منهم) وهو متعلق بمحذوف خبر (إن) وأخر اسمها (فريقا..) لنكتتين: الأولى: التعجيل بذم هذه الطائفة من اليهود، وإظهار باطلهم، ليكون المتلقى على وعى به بدءاً، وبه يتواصل مع السياق الذى يشنع عليهم، ويقبح فعلتهم.

الثانية: أخر اسمها (فريقا) لتعلق ما بعده به، فالجمل بعد النكرات صفات، ولو قدم لفصل الخبر بين اسمها وصفاته (يلوون...) وهذا التأخير من عوامل ترابط النظم وتلاحمه تحقيقا لأثر بالغ فى المتلقين، ومن دقائق النظم المجئ بـ (فريقا) دون غيره كقولنا: (جماعة....) إلى غير ذلك، للدلالة على ما تأصل فيهم من التفرق والتشرذم، وأنه شأنهم الذى جبلوا عليه ونما فيهم، لما هو مركوز فى طبائعهم من كثرة الأهواء والنوازع، ومن جانب آخر من تمدد المعنى وسعته يشير إلى أنه صنيعهم فى غيرهم من محاولات التفريق والتمزيق، ليسهل لهم السيطرة والتخريب، والمعطوف عليه بالواو المستقل به نظم الآية هو قوله تعالى السابق **(ومن أهل الكتاب من)** (آل عمران /٧٥) وسر العطف بالواو الدلالة على استقلالية كل فريق بجرم قبيح ، وضلال مبين.

ثم عبر بقوله: (يلوون ألسنتهم بالكتاب) وصفا لهم، لاشتماله على كل ما يمكن أن يصدر عنهم من انحراف مع الكتاب وتحريف كلماته، فاللى: يستعمل مع الحسى والمعنوى، من لويت الحبل: ألويه ليا، فتلته، وألوى بحقى ولوانى: جحدنى إياه، ولويت أمرى عنه ليًّا وليَّانا: طويته، ولويت عنه الخبر: أخبرته به

على غير وجهه، ولوى فلان خبره: إذا كتمه [١]، فلمادة الكلمة تأثير عميق فى المعنى، فمن جانب تدل على تحريفهم كلمات الكتاب بلى اللسان فى حرف من حروف الهجاء إلى آخر يقاربه، ليفهم السامع الكلمة على غير وجهها، وهذه دلالة حقيقية، ومن جانب آخر تدل دلالة مجازية على تأويل النصوص وتحريف المعانى على غير حقيقتها، استعارة تبعية فى الكلام الذى قصد به غير ظاهره، والادعاء بأنها عين ما أراد الله سبحانه، ويؤيدهما معاً المجئ بقوله: (بالكتاب) دون قولنا: (الحروف أو الكلمات)، وذلك لأن (الكتاب) يحتوى على الأمرين أعنى : الحروف والكلمات ، وكذلك المعانى والمقاصد ومع دلالة الباء على التبعيض إلا أن مجئ كلمة (الكذب) يدل على بعض الكلمات، أو بعض النصوص منه.

وإذا كان البلاغيون يرون استحالة الجمع بين الحقيقة والمجاز معاً، إذ الكلمة عندهم إما أنها حقيقة، وإما أنها استعملت فى غير ما وضعت له مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى [٢] – فإنى أرى توافق النظم مع حالهم، فإن كان تحريفا بلى اللسان فى حرف كانت الكلمة من جانب دالة على ذلك، وإن كان تحريفا للمعانى وتغييرا للمقاصد كانت الكلمة دالة على ذلك، فهى تشمل حاليهما فى التحريف ونوعيه، وتمتد معانيها لتحوى فى طياتها باطلهم، فمع هؤلاء دلالتها حقيقية، ومع أولئك دلالتها مجازية دون اجتماعهما معاً فى حال واحدة، وقد ذكر الطاهر بن عاشور احتمال دلالة الكلمة على المعنيين. [٣]

وإذا كانت للمادة خصوصية دلالية فإن صيغة المضارعة ذات دلالة على أن هذا منهم متجدد ومستمر فيهم لا ينقطع أبدا، ولقوله: (ألسنتهم) دور بار فى تأكيد انكشاف فعلتهم، وظهورها، فهى أمر ظاهر مفضوح لكونه بالألسنة ولا

(١) لسان العرب / مادة / لوى.

(٢) ينظر / المطول / التفتازانى / ص ٣٨٧ وما بعدها، وأفنان البيان / د/ الشحات محمد أبو ستيت / ص ١٥٢.

(٣) ينظر / التحرير والتنوير /٣/صـ٢٩١، ٢٩٢ ، ويراجع / إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز – فى ضوء البيان القرآنى د/ محمود توفيق سعد.

حقيقة لها، وتأمل كيف يجرؤ لسان – وهو مخلوق لله تعالى – على تحريف كلمات الله تعالى وتغيير مقاصد كتابه ؟!

ويؤيده التعبير بالحسبان فى قوله: (لتحسبوه...) وهو فعل يدل على الظن، للدلالة على أن صنيعهم بألسنتهم مهتوك ستره عند ذوى اللب والبصيرة، ولا يجهله إلا ضعيف العقل منطفئ نور البصيرة، « فضعف علم العالم ظن، وضعف عقل العاقل حسبان، لأنه يكون فيما هو من نوع ما فطر الإنسان عليه، واستقر عادة له »[1] وهذا مبين عما يحتويه كلام الله تعالى من جلال وكمال يعلو بهما غيره، ويرتفع على ما سواه، ومع هذا فقد جئ بالحال (وما هو من الكتاب) تنبيها على بعد ما بين كلامه عز فى علاه وغيره مما يحرفه اليهود ويلوون ألسنتهم به، ولا تخفى دلالة الخطاب هنا (لتحسبوه) على تأكيد عداوتهم للمسلمين ومحاولتهم زعزعة إيمانهم وتضليلهم، وفى تعريف (الكتاب) تعظيم له وتنزيه، وسر وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله: (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) أمران: أولهما: الاهتمام به والاعتناء بشأنه وإجلاله، ثانيهما: زيادة التشنيع عليهم، والذم لهم، وبيان جرمهم فى إقدامهم على لىِّ اللسان بأمر ما كان ينبغى أن يكون منهم ولا من غيرهم.

ثم جئ بقوله: (ويقولون هو من عند الله...) تعبيرا عن تجاوزهم وطغيانهم بالإتيان بجرم أعظم، وهو كذبهم صراحة بأن هذا التحريف هو مراد الله تعالى ومن عنده، وهذا من باب التوضيح بعد الإبهام، والتصريح بعد التعريض، فبعد اللىَّ والتحريف التصريح بأنه من عند الله، ومن ثم جاز عطف الجملة على سابقتها بالواو لتغاير ما بينهما، وناسب هذا الكذب الصريح مجئ أسلوب النفى (وما هو من عند الله) ردًّا عليهم، ومن دقائق النظم وخصائص مجئ (من) والعندية فى قولهم كذباً واقتراء ، وفى الرد عليهم نفيا لكذبهم ، وإبطالا لادعائهم ، فهى كلمة بكلمة ، وتعمد الكذب منهم ، ورده ودحضه وهُوِّلَ من جرمهم بوضع المظهر (الله) موضع المضمر (عنده) إذ ادعوا الكذب على (الله) المحيط بجميع صفات الكمال والكبرياء والقهر والجلال، وأسلوب النفى تأكيد للنفى السابق: (وما

(١) من كلام الحرالى شيخ الإمام البقاعى /نظم الدرر / ٦/ ص ٩٠.

هو من الكتاب) وهذا نمط عال من توافر الأسلوب على نفى ادعائهم ومطاردة كذبهم.

ويدل نظم قوله: (ويقولون على الله الكذب...) على تأصل هذه الصفة فيهم، وتمكنها منهم، فما تسمع منهم إلا الكذب، واصطفى الاسم الأعظم (الله) مع ظهوره فى النظم بهذه الصورة الملفتة لبيان فظاعة قولهم، فما كذبوا إلا على الله الكامل الإحاطة بما بطن وبما ظهر، ومثله يخاف ويتقى.

وعبر بـ (الكذب) دون أن يتعلق بشيء ليفيد العموم، فهم أهل كذب مطلق دائما، والمعنى فى هذه الجملة عمود المعنى فى الآية، فهو عام يدخل فيه ما سبق، وتجاوبت مع ذلك الصياغة بالمضارع، ليقف المتلقى على أن الكذب دأبهم وأنه منهم ظاهر فى كل زمان ومكان، ولحرص النظم على إظهار هذه الحقيقة بنا الأفعال على هذه الصيغة (يلوون... يقولون... يقولون...) وهى صفات مرتبطة باللسان ومظهرة خطره.

ويتصاعد المعنى بهذا الختام المريع (وهم يعلمون) لتأكيد تعمدهم الكذب على (الله) تعالى، فلم يكن ما قرره نظم الآية خطأ منهم، ولم يكن يوما شكاً ووجه التأكيد أن تقديم الضمير (هم) على خبره المضارع (يعملون) يفيد تأكيد عملهم وتحقيق وقوعه منهم ، وبذلك يقطع الشك عن المتلقى[1] وهذا – لعمرى – تعميق لذمهم، وتشديد فى تقبيحهم والتشنيع عليهم، وإظهار سوء ما ينطوى عليه كشحهم.

نظم الآية مبسوط متمهل بطئ إيقاعه يتآزر على بيان خطر اللسان، وإظهار أثره السيئ، حينما ينحرف به صاحبه عن الصواب، فيورده مورد المهالك، ليحذر المتلقى ويعتبر.

(١) ينظر/ دلائل الإعجاز / صـ١٢٨ وما بعدها.

الموقع الثانى: فى سياق سورة (النساء)

وفى مقام الذم والتشنيع جاء قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ النساء: ٤٦

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تشتمل السورة على أغراض عديدة، ومعان كلية كثيرة، تلتف حول إقامة مجتمع مؤمن طاهر متعاون مترابط، وذلك بتوخى المنهج الربانى الذى اهتم بالأرحام والأيتام والنساء، والتشريع لمعاملات المسلمين، وتأصيل الأحكام فى الأموال والدماء وجميع الحقوق، وهى بذلك تعمق الإيمان بالله وبمنهجه الذى ارتضاه لعباده، وهذا من دواعى تثبيت التوحيد والاجتماع عليه، يقول الإمام البقاعى: « مقصودها الاجتماع على التوحيد الذى حدت إليه آل عمران، والكتاب الذى حدت عليه البقرة لأجل الذى جمعته الفاتحة »[1] وهذا نسق فريد يظهر تواصل معانى سور القرآن الكريم ونموها فى سياقه المديد، وتتابعها فى نظمه مما يشهد له بالكمال والجلال.

وتهدف هذه الآية إلى بيان جانب سوء صنيع اليهود مع رسول الله –ﷺ– بتحريف الكلم عن مواضعه، لينفوا عنه دلائل النبوة، ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم أن قالوا: سمعنا يا محمد ما تقول ولكننا عصينا ولا نتبع ولا نطيع، وتحريف الكلام والطعن على رسالة النبى –ﷺ– مما يعطل منهجه تعالى، ويجافى التوحيد الخالص، وبهذا تلتقى الآية مع مقصود السورة من الاجتماع على التوحيد وإقامة المنهج الإلهى الكريم.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

جاءت هذه الآية ضمن آيات تستهل بالاستفهام التقريرى التعجيبى من حال اليهود ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾ (النساء/٤٣-٤٧)

(١) نظم الدرر / ٢/ ص٢٠٤.

وشأن من يؤتى نصيبا من الكتاب: الهداية والتقوى والدعوة إلى الحق، لكنهم يشترون الضلالة بالهدى[١]، ثم بينت هذه الآية جانبا من كفرهم وشين فعالهم مع رسول الله –ﷺ– وهو جانب من جوانب اشتراء الضلالة بالهدى، فالسياق متواصل ومتلاحم يشد بعضه بعضا.

التحليل البلاغى:

يكشف النظم الكريم فى الآية عن أثر سيىء آخر للسان بتعديل الكلام وتحريفه من الذين هادوا بهدف الطعن على رسالة الإسلام والتطاول على نبيه –ﷺ– وفى البدء بقوله (من الذين هادوا...) ثلاثة أوجه من الإعراب [٢] نقدها العلامة أبو السعود قائلا: « فالذى يليق بشأن التنزيل الجليل أنه بيان للموصول الأول المتناول بحسب المفهوم لأهل الكتابين قد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة إلى تنفير المؤمنين منهم، وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله ﷻ والاكتفاء بولايته ونصرته»[٣] والذى أراه جديرا بالكشف عن سر التعبير به هو الاسم الموصول (الذى) يقول الإمام عبد القاهر: « اعلم أن لك فى "الذى " علما كثيرا، وأسراراً جمة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر، بما يفضى بك إليه من اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين » [٤] ومن

---

(١) يقول ابن عباس –رضي الله عنهما–: « كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسول الله –ﷺ– لوى لسانه، وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن فى الإسلام دعابة، فأنزل الله فيه: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة...) لباب النقول فى أسباب النزول / السيوطى / ص ٨٣.

(٢) **الوجه الأول** : أنه خبر مبتدأ محذوف ، **الثانى** : أن من الذين متعلق بنصير ، فهو فى موضع نصب به ، **الثالث** : أنه حال من الفاعل فى يريدون .
تنظر بتقديراتها فى: التبيان فى إعراب القرآن / لأبى البقاء العكبرى / ١/ ص ١٨٢ / المكتبة التوفيقية.

(٣) تفسير أبى السعود / ٢/ ص ٨٢، ٨٣.

(٤) دلائل الإعجاز / ص ١٩٩ / تحقيق / شاكر / مطبعة اليمنى / القاهرة / سنة ١٤١٣هـ /١٩٩٢م

محاسنه هنا تسليطه الضوء على صلته (هادوا) لوروده مبهما ولا يتعرف إلا بصلته، وهذا يلقى بها فى بؤرة الاهتمام، ويدرك أن المتحدث عنهم هم اليهود «من الهوادة وهى المودة أو التهود وهى التوبة كقول موسى عليه السلام: (إنا هدنا إليك) (الأعراف/١٥٦) أى: تبنا، فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعض لبعض وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة»[١] ومن خلال إبرازه لهم يقف المتلقى على خبث نفوسهم وسوء قولهم.

ويدل قوله: (يحرفون الكلم عن مواضعه) على التعديل والتغيير، يقول ابن منظور: « وتحريف الكلم عن مواضعه: تغييره. والتحريف فى القرآن والكلمة: تغيير الحرف عن معناه، والكلمة عن معناها وهى قريبة الشبه كما كانت اليهود تغير معانى التوراة بالأشباه »[٢] فاليهود كانوا يميلون عن الحق المقصود من الكلام وتغييره وتأويله، أو أنه تغيير الكلمات وتبديلها لتوافق أهواءهم، مشتقا من الحرف بمعنى الحرف الهجائى المعروف[٣]، « والظاهر أن كلا الأمرين قد ارتكبه اليهود فى كتابهم »[٤] ويتسق استعمال التحريف هنا مع (اللى) فى الموضع السابق، فدلالة التحريف تشمل الاثنين، ويؤيد دلالته على تغيير المعانى وتبديل المقاصد تذكير المضاف إلى (مواضع) حملا على معنى الكلم لأنها جنس[٥]، كما أن الكلمة إذا غيرت تغير الكلام، ويتم بذلك الضلال والإضلال ، وتدل (عن) على المجاوزة ، وهى أكثر معانيها[٦]، أى مجاوزين به عن مواضعه.

ووراء عطف قوله: (يقولون سمعنا وعصينا...) على قوله: (يحرفون...) سر دقيق وهو أن يجمع لهم سوء الفعل وسوء القول، وتدل صيغة المضارع فيهما

(١) تفسير ابن كثير / ١١ ص ١٠٣ مكتبة الدعوة الإسلامية ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م .
(٢) لسان العرب / مادة / حرف.
(٣) السابق
(٤) التحريري والتنوير / ٣/ص ٧٥.
(٥) التبيان فى إعراب القرآن /١/ ١٨٢.
(٦) ينظر/ شرح ابن عقيل / ٢/صـ٢٣، ونظم الدرر / ٢/صـ٢٦٣.

على أنه شأن دائم وحال متجدد، وتكشف صيغة الماضى (سمعنا وعصينا) على تحقق السمع والعصيان منهم ووقوعهما،وهذا أبلغ فى بيان كفرهم والتشنيع عليهم والتيئيس من هدايتهم ورجوعهم عن نهجهم الخبيث من حسد وسوء أدب مع رسول الله ﷺ – والتعبير بضمير الجمع فى النظم يدل على توافرهم على باطلهم هذا واجتماعهم عليه.

وأما صيغة الأمر فى (واسمع غير مسمع وراعنا) ففيها جفاء وقسوة وسوء أدب لا يناسب مقام خطاب سيد الأولين والآخرين –ﷺ– وظاهر العبارة يوهم غير ذلك من حسن الحوار، فالحال (غير مسمع) توهم أنهم قصدوا الظاهر المتبادر من قولهم: غير مسمع.أى: غير مأمور بأن تسمع أولا أسمعت مكروها[١]، فالطباق بالسلب بين (اسمع) و(غير مسمع) يوهم خلاف ما يحملون فى جوانيتهم من عداوة وسخرية وظاهر قولهم: (راعنا) طلب الرعاية والترفق من رعى الأمير رعيته رعاية... قام على حفظها والاعتناء بها، أو من راعنى سمعك أى: استمع إلى [٢]، وبهذا يكون قولهم: (راعنا) تأكيداً لمعنى (اسمع) وجاز عطف قوله : واسمع غير مسمع..) على الخبر فى قوله : (سمعنا وعصينا..) لأن لهما محل من الإعراب وهو وقوعهما فى محل نصب مقول القول ، وأما الجمل التى لا محل لها من الإعراب فلا يعطف بعضها على بعض ، وإن جاءت الواو فهى للاستئناف، حين اتفق البلاغيون على عدم جواز العطف بين الجملتين المختلفتين خبراً وإنشاء وظاهر كلام النحاة جوازه ولاخلاف بين الفريقين ، لأن عند من جوزه يجوز لغة ولا يجوز بلاغة ، كما يقول السبكى رحمه الله تعالى. [٣]

هذا الظاهر الموهم غير حقيقته،أظهره الله تعالى كما هو فى نفوسهم لرسوله –ﷺ– ولأصحابه، وأطلعهم عليه بقوله: (ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) واستعير

(١) ينظر / التبيان فى إعراب القرآن /١/ص ١٨٢، والتحرير والتنوير / ٣ / ص ٧٦.
(٢) لسان العرب / مادة رعى.
(٣) ينظر/ عروس الأفراح /٢/صـ٦،٧ ، ومعنى اللبيب / ابن هشام /٢/صـ٣٣ ، وبغية الإيضاح /٢/صـ٧٥، ودلالات التراكيب /صـ٣٢٥ ومابعدها.

اللى لتحريف الكلام على سبيل الاستعارة الأصلية، فهم يلوون ألسنتهم ليغيروا معناه، ويبدلوا مراده، فهم يقصدون من (غير مسمع) (لا سمعت) [١] و(راعنا) الرعونة بسببهم النبى الكريم [٢]، وهذا منهم سخرية وهزء واستهتار. ولكلمة (طعنا) فى قوله: (وطعنا فى الدين) دلالة قوية على استحكام كرههم لهذا الدين والصد عنه وأنهم لا يجدون بابا يلجون منه إلى محاربته إلا وولجوا فيه، فلكونهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلوون ألسنتهم سخرية واستهتارا فى التعامل مع الرسول الأعظم يطعنون فى دين الله تعالى ويصدون عنه، وقد كانوا يشيعون بين إخوانهم وغيرهم من حديثى عهد بالإيمان أن محمدا لو كان رسولا لعلم ما أردنا بهذا، فكشف الله خبيئتهم، وفضح سريرتهم [٣]، وأنت الواجد دور اللسان السيئ فى التطاول على خير الخلق وسيدهم.

ثم يقرر النظم الطريق الأقوم، والمنهج الأسلم الجدير بأن يكونوا عليه: (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خير الهم وأقوم).

لو: أداة شرط، فسرها سيبويه بأنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وفسرها غيره بأنها حرف امتناع لامتناع، وهذه العبارة الأخيرة – كما يقول ابن عقيل – هى المشهورة، و الأولى الأصح [٤]، والمتأمل يجد مآلهما فى المعنى واحد، فعلى تفسير سيبويه تفيد بأن خيرا لهم وأقوم كان سيقع لهم لو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا، وتفيد على الثانى: امتناع وقوع الخير لهم لا متناعهم عن قولهم سمعنا وأطعنا، إفادة المتلقى زبدة المعنى وخلاصته من التفسيرين واحدة وإن اختلفت طريقة الوصول إليه واستنباطه، وعلى كل فجملة الشرط بما اشتملت عليه من التوكيد بإن واسمية الجملة، ودلالة صيغة الماضى فى (سمع) و(أطاع) على تحقق السمع والطاعة ووقوعهما – تفيد الوضوح والبيان والتحديد والاختصار، وهذا أنسب لمقام التوجيه إلى ما يجب أن يكون عليه من يخاطب النبى –ﷺ–

(١) مختار الصحاح للرازى / مادة / سمع / ص٣١٤.
(٢) ينظر / تفسير ابن كثير / ١/ص ٥٠٧.
(٣) ينظر / التحرير والتنوير / ٣/ ص ٧٦.
(٤) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك / ٢/ ص ٤٧.

بألفاظ صريحة لا تحريف فيها ولا التواء، وللطباق بين (أطعنا) و(عصينا) أثر بين فى المعنى، بإظهاره ما هم عليه من عصيان ومخالفة، وما يجب أن يكونوا عليه فيختار المتلقى ما أرشده الله إليه.

وجمع النظم بين (خيرا) و(أقوم) فى قوله: (لكان خيرا لهم وأقوم) ليشمل خيرى الدنيا والآخرة وما يرجى فيهما، فالخير ضد الشر، ويحوى كل ما ينفع وما يرفع، و(أقوم) يدل على الاستقامة نفسا وحالا وطبيعة واعتدالها، وقدم (خيرا) إغراء لهم بما يعود عليهم من المنفعة العاجلة والآجلة، وهم أشد علوقا بمنفعتهم قبل اعتدالهم، ولصيغة الماضى فى (كان) الناقصة دلالة قوية على تحقق الجواب ووقوعه، لو تحقق شرطه.

أسلوب الشرط يؤكد انتفاء نيلهم الخبر واستقامة النفس لا متناعهم عن التعامل مع النبى –ﷺ– والحق الذى جاء به بصراحة ونصاعة واستقامة، وإن كان يبرق من ورائه حث وتحريض وإطماع لهم فى الهداية والاستقامة والخير.

وتفيد (لكن) فى قوله: (لكن لعنهم الله بكفرهم..) معنى الاستدراك الذى لا يكون إلا بعد كلام سابق [1]، وهو هنا ناشئ عن قوله: (لكان خيرا لهم وأقوم) وإسناد الفعل (لعن) إلى (الله) دون غيره ترهيب وتخويف بأن فاعله من أحاط بمعانى الهيبة والكبرياء والعظمة والقهر، وصيغة الماضى تفيد تحقق لعنهم، ووقوع طردهم من رحمته تعالى وهدايته التى لا يستحقونها لسوء طويتهم، وطمس أحاسيس الإيمان والطاعة لله ولرسوله، أفاده قوله: (بكفرهم) فالباء للسببية،أى: بسبب كفرهم، والكلمة تجمع لهم كل نقيصة، فليس بعد الكفر ذنب كما يقولون.

كما جئ بأقوى طرق القصر وأبلغها فى قوله: (فلا يؤمنون إلا قليلا) لتقرير هذه الحقيقة، وهى أن من يؤمن منهم فإن إيمانه ضعيف ركيك، وفى جملة القصر إيجاز بالحذف، وتقديره:إيمانا قليلا [2]، وهو المقصور عليه، وسر الحذف

(١) ينظر الموسوعة النحوية – الصرفية /د/ يوسف أحمد المطوع / ص ١٥١ دار الكتب الإسلامية، وقضية الربط فى الجملة العربية / د/ محمد السيد البغدادى / ص ٤٧.
(٢) التبيان فى إعراب القرآن /١/ صـ ١٨٣.

توفير الاهتمام على الصفة (قليلا) والتركيز عليها، حتى يقف المتلقى على قلة إيمانهم فيحذر ويتقى.

ويظهر أن الوصف يفيد – من جانب آخر – قلة من يؤمن منهم، وبذلك ترجع القلة إلى الكيف وإلى الكم، وهذا من جلال الحذف وجماله.

مجئ اللسان فى نظم الآية يكشف عن أثره العظيم فى حياة الناس إن خيراً (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا) وإن شرا (يقولون سمعنا وعصينا...) فهذا التقابل المعنوى بين الجملتين عموما يهيئ المتلقى للتلبث لينظر فى حاله، ويتخذ من لسانه مطية للفور والنجاة.

الموقع الثالث: فى سياق سورة (المائدة)

وفى مقام الذم والتقبيح والتشنيع جاء اللسان فى قوله تعالى من سورة المائدة ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ ﴾ المائدة: ٧٨

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

هو الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق شكراً لنعمه، واستدفاعا لنقمه،وقصة المائدة أدل ما فيها على ذلك، فإن مضمونها أن من زاغ عن الطمأنينة بعد الكشف الشافى والإنعام الوافى نوقش الحساب فأخذه العذاب، وتسميتها بالعقود أوضح دليل على ما ذكر من مقصودها... (١).

وجاءت الآية لتظهر ما أصاب اليهود من اللعن والطرد على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم، وهذا تحذير من مخالفة الحق، وتعدى الحدود، والانحراف عن التوحيد، وبهذا الوجه ترتبط الآية بمقصود السورة.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

كما ترتبط الآية بالسياق الذى وردت فيه، وتتعانق معه، فلما نهى عز فى علاه أهل الكتاب عن الغلو فى الدين بغير الحق واتباع أهواء من ضلوا من قبل، ...

(١) نظم الدرر / ٢/ ص ٣٨٤.

وقبحه عليهم (الآية /٧٧) علل ذلك محذرا مما تأصل فى اليهود واستمر فيهم من اللعن، والآية بموقعها من السياق كالدليل على ضلال أهل الكتاب الذى ختم به الآية السابقة عليها.

التحليل البلاغى:

إذا كان النظم فى الموضعين السابقين قد أوقفنا على مناح من فساد اللسان وذمه فإنا نعتبر هنا بما للسان الطاهر الذاكر الشاكر من أثر خطير فى عقاب العصاة المعتدين بما يستحقون من جزاء، وافتتح نظم الآية بالفعل الماضى (لعن) المبنى لغير فاعله، والفاعل الله جل جلاله بدلالة قوله: (على لسان داود وعيسى بن مريم) وعلة البناء " الجرى على سنن الكبرياء " [١]، وفى الحذف توسيع للمعنى، فكأنهم بسبب لعن الله لهم لعنوا من كل الخلائق تقبيحا لهم وذما لما صاروا عليه من كفر وطغيان[٢] وحذف الفاعل وبناء الفعل لغير فاعله مع بيان المعنى ووضوحه ضرب من الإيجاز البلاغى بالحذف[٣]، واختير اللعن دون غيره لدلالته على حرمانهم من خيرى الدنيا والآخرة، فهم محرومون من الهداية إلى الحق فى الدنيا، ومحرومون من النعيم المقيم فى الآخرة، يقول ابن فارس: «اللام والعين والنون أصل صحيح يدل على إبعاد وإطراد، ولعن الله الشيطان: أبعده عن الخير والجنة، ويقال للذئب لعين، والرجل الطريد لعين»[٤]، واللعين: الشيطان صفة غالبة لأنه طرد من السماء، وقيل: لأنه أبعد من رحمة الله. واللعين:

(١) تفسير أبى السعود /٣/ ص ٦٩.

(٢) قيل: إن أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخهم الله قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير (تفسير أبى السعود /٣/ ص ٦٩) وعلى كل فالفاعل الحقيقى هو الله تعالى، ودعاؤهما سبب للعن يضاف إلى سوء فعالهم.

(٣) ينظر البلاغة والتحليل الأدبى / د/ أحمد أبو حاقة / ص ١٠٩،١١٠، دار العلم للملايين.

(٤) مقاييس اللغة / مادة / لعن / ٥/ ص ٢٥٣، ٢٥٤.

الممسوخ، واللعين: المُخْزَى المُهلك، واللعنة فى القرآن: العذاب [١]، الكلمة ذات دلالة قوية ممتدة تشمل الخزى والهلاك فى الدنيا والآخرة.

وجئ بنائب الفاعل اسم موصول فى قوله: (الذين كفروا...) دون أن يقال: الكافرون أو الكفار، لما يتميز به الموصول من خاصية وروده مبهما، ثم بيان هذا الإبهام وتوضيحه بجملة الصلة، فيتأكد المعنى فى نفس المتلقى، ويقف على ما استقر فى نفوسهم من كفر وضلال، وصيغة الماضى تفيد تحقق كفرهم ووقوعه، وسر التعبير بالحال (من بنى إسرائيل) التصريح بنسبتهم، وإفادة تعيينهم والتعريف بهم تشنيعا عليهم، وتقريعا لهم، فصاروا معروفين بهذا الكفر، وذاك اللعن، على مر الأجيال.

وأما قوله: (على لسان داود وعيسى بن مريم) فمتعلق بـ (لعن) لإفادة تأكيد لعنهم وتهويله وتفخيمه، لمجيئه على لسان نبيين عظيمين، ورسولين كريمين، وكان بينهما كما ذكر أكثر من ألف سنة [٢]، مما يدل على استمرار اللعن فيهم لاستمرار أسبابه وتواصلها جيلا بعد جيل، وهذا لعمرى ذم وتحقير لو وقفوا عليه لتواروا من بين الأمم خجلا. واللسان: هو الجارحة المعروفة، وقيل: اللغة [٣]، والأظهر فى شدة اللعن، والأنسب لمقام الذم والتشنيع إرادة معناه الحقيقى، لما فى جريان اللعن عل لسان مَنْ هما مِنْ أطهر الخلق وأكرمهم من تهويل وترهيب وذم وتقريع، وقد ذكر الدامغانى أن[٤] اللسان فى الآية بمعنى الدعاء إلا أن تقديره بقوله : (أى على دعاء لسان داود) يؤيد القول بدلالته على الجارحة المعروفة.

ويعود اسم الإشارة فى قوله: (ذلك بما عصوا...) إلى اللعن المذكور، وفى الإشارة علة بلاغية دقيقة، فقد صار هذا اللعن لكمال ظهوره وتمييزه عن غيره مشاهدا بحيث تصح الإشارة إليه، لما فى اسم الإشارة من خصوصيات يميز بها الحسى المشار إليه أكمل تمييز، أو ينزل غير الحسى تلك المنزلة كما يقول

(١) لسان العرب / مادة / لعن
(٢) ينظر / التحرير والتنوير / ٤/ ص ٢٩٢.
(٣) ينظر / روح المعانى / اللألوسى / ٦/ص ١١٢.
(٤) ينظر/ الوجوه والنظائر /٢/صـ٢٠٠، ٢٠١.

الدسوقى رحمه الله [١]، ولما فيه من معنى البعد الدال على كمال فظاعة المشار إليه، وبعد درجته فى الشناعة والمقت والهول.

أفاد النظم من طاقات اسم الإشارة المسند إليه، ومسنده (بما عصوا وكانوا يعتدون) والباء للسببية، أى: لعنوا بسبب عصيانهم، و(ما) مصدرية، وهى وما دخلت عليه فى تأويل مصدر مجرور بالباء، وعدل عن ذلك إلى ما جاء عليه النظم لما فيه من خصائص تتسق مع خصوصيات المعانى التى عنى النظم بتحقيقها فى نفوس المتلقين، فصيغة الماضى (عصوا) تفيد حصول عصيانهم لله تعالى ووقوعه منهم ثابتا من قديم، وتصلح (ما) أن تكون اسم موصول ، ومن ثم تسلط الضوء على جملة الصلة ، وتشهرها ، وتلقيها فى وعى المتلقى ليتقرر المعنى فيه ويثبت . بينما جئ بصيغة المضارعة مع الاعتداء (يعتدون) لدلالتها على تجدد اعتدائهم على الأنبياء واستمراره، وزيد المعنى قوة بدلالة صيغة الماضى فى فعل الكينونة (كانوا) فما يأتى رسول ولا نبى إلا واعتدوا عليه، حتى كان ذلك منهم مع خاتمهم محمد ﷺ .

والسر البلاغى فى عدم تعلق العصيان والاعتداء بشئ إفادة العموم، وفى ذلك ما لا يخفى من ذم وتحقير وتقبيح، فكأنهم ارتكبوا كل معصية، وكل اعتداء، وهذا واقع منهم على كل من يكون منه دعوة إلى الحق والهدى، وفصلت جملة (ذلك بما عصوا...) عما قبلها لشبه كمال الاتصال، فهى بمثابة جواب عن سؤال يثيره ما سبق من الآية عن سبب لعنهم، وجاءت هذه جوابا عنه، وفصلت كما يفصل الجواب عن السؤال، ولا تخفى الأسرار اللطيفة من وراء تنزيل السؤال المقدر منزلة المحقق، من تنبيه المتلقى على مكانه من النظم، وإغنائه عن السؤال، وتكثير المعنى بتقليل اللفظ [٢].

(١) حاشية الدسوقى على شرح السعد / ١/ص ٣١٣/ دار الكتب العلمية.

(٢) ينظر / مفتاح العلوم / السكاكى / ص ١٢٧، وينظر / فى البلاغة القرآنية – أسرار الفصل والوصل د/ صباح عبيد دراز /صـ١١٦ مطبعة الأمانة.

والنظم بهذه المكونات يوقف المتلقى على علة لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل، ويحذره من أن يلعنه الله تعالى على لسان طاهر مجاب الدعوة، فتحق اللعنة، ويقع الطرد من رحمة الله تعالى.

الموقع الرابع: **فى سياق سورة (النحل)**

وفى هذا المقام الذى يقبح على المشركين سوءهم ويذمهم عليه جاء قوله تعالى من سورة (النحل): ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النحل: ٦٢

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تقصد السورة إلى الدلالة على أنه تعالى تام القدرة وشمول العلم، فاعل بالاختيار منزه عن شوائب النقص، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها من دقة الفهم فى ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها، وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الأمور... (١)

واتخذت فى سبيل تقرير مقصودها سبلا عدة، كالتذكير بخلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، والناس والحيوان والنبات والبحار والجبال والليل والنهار، حتى سميت بسورة (النعم) (٢) يستنبط من سياقها .

وتأتى هذه الآية لتكشف عن جانب ينافى الإيمان بالله، وإجلاله وتنزيهه، بجعلهم لله ما يكرهون من البنات وغير البنات كالأموال والشركاء، إلى غير ذلك، مع زعمهم أن سينالهم الخير والفضل على ذلك، وتقرر الآية خلاف ما يزعمون بأن لهم النار، وهذا منهم شرك يخالف التوحيد، وسوء تأدب ينافى استشعار قدرته تعالى وإحاطته، وهذا وجه ارتباط الآية بمقصود السورة وتعلقها به.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

(١) نظم الدرر /٤/ص٢٥٠.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن /السيوطى / ١/ص٥٤.

جاءت الآية ضمن آيات تتناول تصورات أهل الشرك وتصرفاتهم السيئة (الآيات ٥٦ – ٦١) وهى آيات تشير إلى ما يكرهون وينسبونه إلى الله تعالى إلماحاً، ثم تصرح الآية بذلك وتبين عنه، وبذلك تتأكد المعانى ويترابط الأسلوب، ويتواصل السياق ويتنامى إبطالا للباطل، وإحقاقا للحق، وتقريرا للحقائق العظيمة.

التحليل البلاغى:

يتناول تظم الآية قضية كاذبة تلوكها الألسنة المشركة بالله وبرسوله –ﷺ– وكأنها بهذا هى الكذب ذاته تقصه وتفصله، وهذه سمة كل لسان لا يقدر الله حق قدره، ويُدئَ بالفعل (يجعل) ومادته ذات دلالات على معانى متعددة، يقول الراغب [(١)]: جعل: لفظ عام فى الأفعال كلها، وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه: الأول: يجرى مجرى صار وطفق فلا يتعدى. الثانى: يجرى مجرى أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد. الثالث: فى إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه. الرابع: فى تصيير الشيء على حالة دون حالة. الخامس: الحكم بالشيء على الشيء حقا كان أو باطلا.

وهذا الجعل منهم بهذه الدلالات العامة الواسعة من الإبلاغ فى تصوير تعنتهم وشناعة نسبتهم إلى الله تعالى ما يكرهون، ليقف المتلقى على ما ينطوى عليه كشحهم، ويبرأ إلى الله تعالى من صنيعهم، ويتجه إليه إجلالا وتقديسا وتنزيها، وأوقفتنا صيغة المضارعة على استمرارهم فيه،وتجدده منهم، ومما يخيف ويرعب إيقاع النظم جعلهم على (الله) الذى خلقهم وخلق ما يجعلونه له، مما يظهر سوء فعلهم، وشناعة ما صدر عنهم.

واختير التعبير بالموصول فى (ما يكرهون) ليبرز صلته، ويجعلها مركز اهتمام المتلقى، فهو من الوجوه الأسلوبية التى تتأكد من خلالها المعانى وتقر قرارها، وما أشنع أن يجعل المخلوق ما يكره للإله الخالق ، إذ المتقبل نفسا وحالاً وطبيعة وعقيدة أن يجعل له تعالى ما يحب إنفاقا وإحسانا: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢ ويتولد من مجيء الموصول وصلته أمران: إفادة العموم، ليشمل البنات وغيرهن من أراذل الأموال والشركاء

(١) المفردات فى غريب القرآن / مادة / جعل.

والزعماء إلى غير ذلك. وتهويل صنيعهم وتفظيع حالهم، بكرههم البنات، ثم بجعلهم ما يكرهون لله عز فى علاه، جرم فوق جرم.

والنظم فى قوله: (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) ذو دلالة عميقة فى تصوير حالهم، وكشف جانب ضال جاهل كافر، فالفعل (تصف) يوقف بمادته على صفات الشيء وحُلاَه، يقول ابن فارس: (الواو والصاد والفاء: أصل واحد، هو تحلية الشيء، ووصفته أصفه وصفا. والصفة الأمارة اللازمة للشيء) [(١)] وإسناده إلى ألسنتهم وإيقاعه على (الكذب) تعبير مجازى طريقه المجازى العقلى وعلاقته الآلية ، فألسنتهم هى الآلة التى يقع بها هذا الباطل مما يجعل ألسنتهم كأنها الكذب نفسه، تحكيه وتشرحه بذاتها، استمراء له، واستمرارا فيه، وفى الإسناد إلى اللسان – من جانب دقيق من جوانب المعنى ودقائقه – برهان على انتفاء وجود حقيقة لقولهم، مما يجعل العقل المستقيم والقلب السليم يرفضانه، ويشنعان على قائله، وأسلوب التوكيد فى (أن لهم الحسنى) بيان لكذبهم وتوضيح له، فالحسنى تشمل كل ما من شأنه يجعل عاقبتهم مرضية، لما فيها من سلامة ونعيم، وأنت الواقف هنا على ما وراء النظم من ظلال ساخرة منهم، حيث خيل إليهم أن جعلهم لله ما يكرهون يجعل لهم ما يحبون !!

هذا الذى تحس به يجعلك تتساءل عما هو كائن لهم عنده سبحانه ؟ ويأتى الجواب ثائراً مجلجلا (لا جرم أن لهم النار...) مما دعا إلى فصل الجملة عما سبق، لشبه كمال الاتصال، فلا جرم: رد لكلا مهم، أى: حق أن لهم النار [(٢)]، وهى تجابه قولهم: (أن لهم الحسنى) وزيدت قوة بتناسق التركيب فى صياغتهما بـ (أن) وتعريف المسند إليه، وتقديم المسند (لهم) والطباق بين (الحسنى) و(النار) وهو محسن بديعى يصور ما بين ما تصف ألسنتهم الكذب وعاقبتهم المستحقة من تفاوت، ولولا وجود الطباق ما أدركنا هذا التفاوت المخيف، ليفقه المتلقى

(١) مقاييس اللغة / مادة / وصف / ٦/ ص ١١٥.

(٢) ينظر / لسان العرب / مادة / جرم، والتبيان فى إعراب القرآن /٢/ص ٣٦، وأسلوب لاجرم ودلالته البلاغية فى اللغة والقرآن الكريم /د/ السيد سلام / مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية /صـ٩٧٤ –صـ٩٧٨/ العدد ٢٣/٢٠٠٥م .

ويرتدع، فتصور أحد الضدين تصور للآخر، مما يجعل الذهن عند ذكر الضد يكون مهيأ للآخر ومستعداً له، فإذا ورد عليه ثبت وتأكد فيه [١].

وختمت الآية بقوله: (وأنهم مفرطون) اسم مفعول من (أفرط) وهو المقدم المعجل به [٢]، فهم مقدمون إلى النار، معجلون إليها، وهى صورة مرعبة، ومشهد مفزع، تراهم فيه يؤخذون على عجل ليقذفوا فى الهاوية، وأسلوب التوكيد يؤكد سوء مآلهم يوم القيامة، والمعنى هنا امتداد لقوله: (أن لهم النار) حيث يصور حال إلقائهم فيها من التعجيل بهم إليها.

للسان فى نظم الآية دور بارز فى الكذب، بل تبصره فيه الكذب ذاته، فإذا نطقت ألسنتهم به فقد صورت الكذب بصورته، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، وقوامه يصف الرشاقة [٣]، فهى تحكيه وتنشره، وكل صاحب دين وعقل يرفضه، ويقبح مرتكبه، ووراء ذلك إرشاد إلى مخافة الله وخشيته وتنزيهه عما يصف المشركون.

(١) ينظر / البديع من المعانى والألفاظ /د/عبد العظيم المطعنى / ص٩ وما بعدها، ودراسات منهجية فى علم البديع /د/الشحات محمد أبو ستيت /ص ٥١.

(٢) لسان العرب / مادة / فرط.

(٣) ينظر / الكشاف / ٢/ص٦٠٨ وفى ظلال القرآن /٤/ ص ٢١٧٩.

الموقع الخامس: فى سياق سورة (النحل) أيضا:

وفى هذا المقام جاء اللسان جمعا فى السورة ذاتها فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ ﴾ النحل: ١١٦.

مقصود السورة وعلاقة الآية به :

تنهى الآية عن التشريع بغير توجيه من شريعة الإسلام، فالله وحده العليم بما يحل لعباده، وبما يحرم عليهم، وما يدعى أحد حق التشريع بغير نص من شريعة الله إلا مفتر لا يجد فلاحا فى الدنيا والآخرة(١)، والآية بهذا تقرر إحاطة علمه تعالى بشئون خلقه، وبما ينفع ويضر، وشرع سبحانه وفق هذا العلم ما يحل وما يحرم، ومن هذا الوجه تلتقى الآية ومقصود السورة.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

تضمن الآية سياق يأمر بالأكل مما أحل الله تعالى من الطيبات وبشكره على نعمائه، وتحدد المحرمات وتقررها عن طريق أسلوب قصر، وبعد حد الحلال وحصر الحرام نهى عن الكذب بادعاء تحريم ما أحل الله تعالى، أو تحليل ما حرم، إذ لا يكون ذلك إلا بتوجيه وتشريع، وبمثل هذا التواصل بين الآيات يترابط الأسلوب ويتلاحم.

التحليل البلاغى:

لم يأت الفعل (تصف) مسندا إلى الألسنة فى البيان القرآنى إلا فى هذين الموضعين من سورة النحل، وكان الموضع السابق (وتصف ألسنتهم الكذب) يصور جرمهم العظيم بعدم تنزيههم الله تعالى إذ جعلوا له ما يكرهون، وهنا (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) يتعلق بجرم آخر وهو التعدى على ما اختص الله تعالى به افتراء عليه، وكان الأسلوب الخبرى هناك أنسب لما فيه من تصوير لحالهم وتقبيح لكذبهم، وكان النهى هنا أليق، لما يتسم به من حزم وقوة وفاء بحق المعنى واقتضاء المقام له، مما يشعر بخطورة ادعاء أحد بأحقيته فى التشريع

(١) ينظر/ فى ظلال القرآن / سيد قطب /٤/صـ٢٢٠٠.

تحليلا أو تحريما بغير إذن منه تعالى، فالنهى عن قولهم الكذب الذى تصفه ألسنتهم وتصوره: هذا حلال وهذا حرام. وجئ بالمصدر المؤول (لما تصف ألسنتكم) وأسند الفعل (تصف) إلى (ألسنتكم) لتقرير الحقيقة التى لا يجب أن تغيب، بأن فريتهم هذه محض كذب لا دليل عليه من شرع ولا عقل تصفه ألسنتهم وتنشره وتروجه بين الناس على سبيل المجاز العقلى.

وعرف المسند إليه فى قوله: (هذا حلال وهذا حرام) تصويراً لتجرؤهم بهذا الادعاء الكاذب، إذ جعلنا كالمشاهدين الذين يرون يدهم وهى تشير – مع كذب ألسنتهم بالتحليل والتحريم– إلى ما لم ينبؤا به، وينصب لهم دليل عليه، واسم الإشارة هو الأجدر بهذا التمييز ذما لهم، وتشنيعا عليهم، وساعد على فهم ذلك ووضحه الطباق بين (حلال) و(حرام) فبه يظهر لك كذبهم، وتنصيب أنفسهم مشرعين تحليلا وتحريما تبعا للهوى والمصلحة، والطباق إذا تطلبه المعنى، واقتضاه المقام كان له دور علىٌّ لا غنى عنه فى تقرير المعنى وتبيينه، وتلاحم الأسلوب وترابطه.

ثم أتى بقوله: (لتفتروا على الله الكذب) تعليلا لجملة (تقولوا...) فهم يكذبون على الله تعالى بنسبة هذه الفرية إليه، وفى مادة الفعل (تفتروا) دلالة على تعمد الكذب واختلاقه على وجه الإفساد والصد عن الهدى، فالفرية: الكذب وافتراه: اختلقه، وفرى الشيء يفريه فَرْياً وفَرَّاه: شقه وأفسده [١]، وفيه دلالة – كذلك – على أنهم بفعلهم هذا قد ارتكبوا أمرا عظيما مهولاً، « فالفرىُّ: الأمر العظيم، وفى قصة مريم قال تعالى: (لقد جئت شيئا فريا) (٢٧) قال الفراء: الفريُّ: الأمر العظيم، أى جئت شيئا عظيما، وقيل: جئت شيئا فريا مصنوعا مختلقاً »[٢] ولا أرى تعارضا بين إفادة المعنيين من الفعل، فقولهم كذب مختلق، وهو– بلاشك – أمر مهول عظيم، بل إن أعظم الكذب ما كان منه على الله جل جلاله، ولذا كان إيثار النظم التعبير بـ (الله) لتربية المهابة وزيادة التخويف، وأن هذه القضية مما اختصت به الألوهية.

(١) لسان العرب / مادة / فرا.

(٢) لسان العرب / مادة / فرا.

ويقرر أسلوب التوكيد فى قوله: (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) سوء حال الذين كذبوا على الله تعالى وخسرانهم، ويفيد مجئ الموصول اشتهارهم بمضمون الصلة، وأنه صفة متأصلة فيهم، تتجدد فى نفوسهم، وتنطلق بها ألسنتهم، بدلالة صيغة المضارع فى جملة الصلة التى هى – أيضا– سبب فى انتفاء فلاحهم، وأظهر فى موضع الإضمار بمجئ الاسم الأكرم (الله) وقدم على الكذب تناسقا مع تقدمه فى الجملة السابقة (لتفتروا على الله...) أهمية واعتناء وتشنيعاً عليهم، وترهيبا وتحذيرا من التجرؤ على مثل ما كان منهم.

ومن السمات البلاغية فى الآية المجئ بالكذب وإظهاره فى ثلاثة مواقع، مما يؤكد صيرورته طبعا فيهم لازما إن لم يجدوه بحثوا عنه استمراء واختلاقا فى كل شيء، صغيرا كان أو كبيراً حتى كانت الداهية المهلكة كذبهم على الله تعالى، وزيد اسم الجنس (الكذب) بالتعريف قوة وشناعة ومقتا وظهورا آكداً لا يحتاج إلى عناء لكشفه وتعريته ومحقه، وتسليط النفى على الفعل (يفلحون) يقرر انتفاء فلاحهم ونجاتهم وبقائهم فى النعيم والخير، ولم يقيد الفلاح بالدنيا أو بالآخرة إفادة لخسرانهم فيهما، وقد خاب من خسرهما.

وهذه عاقبة من فسد قلبه، وضل سعيه، وانطلق لسانه متجرئا على الله كذبا وافتراء فيحل ويحرم وينسبه إلى الله، وفى ذلك عبرة وعظة ليأخذ الناس حذرهم، فيقيموا الشرع ويستمسكوا به.

الموقوع السادس: **فى سياق سورة (الأحزاب)**:

وفى سورة الأحزاب أتى اللسان جمعا فى قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ الأحزاب: ١٩.

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تدعو السورة الكريمة إلى الصدق فى إخلاص التوجه إلى الخالق من غير مراعاة بوجه ما للخلائق، لأنه عليم بما يصلحهم، حكيم فيما يفعله، فهو يعلى من

يشاء وإن كان ضعيفا، ويردى من يريد وإن كان قويا، فلا يهتمن الماضى لأمره برجاء لأحد منهم فى بره، ولا خوف من عظيم شره، وخفى مكره [١].

ومن دواعى إخلاص التوجه إليه تعالى والارتباط به ما أرشدت إليه هذه الآية والتى قبلها (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا....) (١٨) فالله مطلع عليهم عليم بخفى أمرهم وخبايا مكرهم فى تخذيل المسلمين، ودعوتهم إخوانهم إلى القعود عن الجهاد والنصرة، وهذا ما يلقى فى روع المؤمن طمأنينة وسكينة ورضا، فإن الجميع مكشوف لعلم الله، وعمود هذا المعنى ما جاء فى الاستهلال: (ولا تطع الكافرين والمنافقين) وبهذا ترتبط الآية بمقصود السورة ارتباطا وثيقا.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

السياق الذى وردت فيه الآية يتناول غزوة الأحزاب بأحداثها ومواقفها، وقد تناولت الآية مع غيرها موقف فريق ممن كان لهم دور فى أحداثها وهم المنافقون المثبطون، ليطمئن فريقاً آخروهم المجاهدون بأن الله عليم بأعدائهم، ولينفر المتلقين من سبيلهم، وليحذر مما ينطوى عليه مكنونهم من خداع وكذب وتخذيل وضعف وخوار، وبهذا تتسق المعانى، ويتعاضد السياق ويترابط.

التحليل البلاغى:

جاء اللسان فى هذا الموضع فى مقام ذم المنافقين والتشنيع عليهم تأكيدا لخطره، وتصويراً لأثره المدمر، وبخاصة فى أوقات المواجهة مع الأعداء، حينئذ ترى المنافقين يخرجون من جحورهم، ويلعبون دورا قميئا فى ترويج الإشاعات، وتشتيت المجاهدين، ويصور النظم هؤلاء المعوقين الذين أحاط الله بهم علما فى صورة ساخرة مضحكة مخجلة لهم، ونقف على خصوصياتها وجزئياتها بتأمل كلمات النظم وتراكيبه وظلال صوره البيانية وبديعياته، ففى قوله: (أشحة عليكم) إظهار لمكنوناتهم الذميمة تجاه المسلمين، وإيثار الشح على البخل ذو دلالة

(١) نظم الدرر / ٦/ ص ٦٧.

عميقة على البخل الشديد، أو البخل مع الحرص[١]، وهو أقوى فى المنع والصرف عن العطاء، وجئ بـ (عليكم) دون تقييد الشح بمال أو غيره، ليشمل الشح بالمال والبدن والعطاء والعواطف من مودة وإخاء ورحمة وشهامة ونجدة ونصرة، فهم على هذه الحال التى تفضح صاحبها، وتكشف سوءته، كما يوحى قوله: (عليكم) بأنهم يبذلون بعض ما يملكون على غير المسلمين، وهذا مظهر لما يحملونه تجاه النبى –ﷺ– وأصحابه من بغضٍ وشح وعداوة.

ويتتابع التصوير البيانى فى الآية، ففى قوله: (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم...) صورة استعارية، إما بتشبيه الخوف بمن يصح منه المجئ على سبيل الاستعارة المكنية، وقرينتها (جاء) وإما باستعارة المجئ لحدوث الخوف ووقوعه، واشتق من المجئ (جاء) بمعنى وقع، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وإذا ما كانت المبالغة وقوة التصوير تتجه إلى الفاعل (الخوف) فى المكنية، وتتجه إلى الحدث الدال عليه الفعل (جاء) فى التبعية، فإنى أرى اتساق المكنية – هنا– مع المقام، لإفادة المبالغة فى الفاعل وإظهار قوته وتمكنه من نفوسهم وسيطرته على أفئدتهم، وهذا أعلى فى التشنيع عليهم والسخرية منهم والاستهزاء بهم، فالمبالغة تتجه إلى أثر الخوف فيهم، لا إلى هوله هو فى ذاته، ويؤيده التعبير بالفعل (جاء) دون أتى، لدلالته على صعوبة المجئ وشدته وثقله، وذلك راجع إلى إسناد الفعل إلى الخوف لما فيه من شدة وصعوبة [٢] على نفوسهم الخوارة المستمرئة الهوان والذل.

وهذا ما يزداد بيانا فى التشبيه التمثيلى فى قوله: (رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى: ينظرون إليه نظراً يشبه المغشى عليه

(١) لسان العرب / مادة / شحح.

(٢) الإتيان والمجئ – فقه دلالتهما واستعمالهما فى القرآن الكريم / د/محمود حمدان / ص ٣١، وينظر / مقاييس اللغة /١/ ص ٤٩٧، والأفعال للسرقسطى /٢/ص ٢٧٣ /ت /د/ حسين شرف، د/مهدى علام / المطابع الأميرية، والأفعال ابن القطاع / ١/ ص ص١٨٢، عالم الكتب.

تراه يقلبه هنا وهناك، فالكاف بمعنى شبه، لأن التشبيه فى صورة مشاهدة [١]، والصورة تريك هيئة خائف قلق مذعور.

التصوير فى الآية لم يعتمد فقط على الصورة البيانية التشبيهية، وإنما هو منحوت منها ومن الكلمات والتراكيب، فتراها صورة شاخصة متحركة، ترى فيها نظرا، وأعينا مذهولة تدور هنا ثم تراها هناك، ونزع موت وغشيان، وغرض ذلك تأكيد خورهم وتصوير جبنهم وذعرهم.

ثم يصور فى قوله: (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير) حالهم التى تظهر بعد ذهاب الخوف، ويشتمل النظم على صورتين: الأولى: فى قوله: (ذهب الخوف) وهى كالسابقة فى (جاء الخوف) إما تبعية بتشبيه انقضاء الخوف وانتهائه بالذهاب الذى اشتق منه (ذهب) بمعنى انتهى[٢]، وإما مكنية بتشبيه الخوف بمن يكون منه الذهاب، وهى الأعلى لإفادتها تشخيص الخوف وبيان أثره عليهم، فهم تحت وطأته والخضوع له حتى انتهائه، وهذا أليق بالمقام.

الثانية: فى قوله: (سلقوكم بألسنة حداد) وفيها يشبه الألسنة بالسيوف المصلتة، وحذف المشبه به، ودل عليه بالسلق بمعنى الضرب، على سبيل الاستعارة المكنية[٣]، وقوله: (حداد) جمع حديد، وهى أبلغ من غيرها وأقوى، لأن الترشيح يبعدها عن المعنى الحقيقى، ويعضد المعنى المجازى ويقوى الادعاء فيه

(١) أدوات التشبيه /د/ محمود موسى حمدان / ص ١٤١، مطبعة الأمانة ، وينظر / الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ثاقيا البغدادى /صـ٢١٢-٢١٤ ت/ محمد رضوان الداية / دار الفكر المعاصر –بيروت ط الأولى / صـ٢٠٠٢.

(٢) يوقل الطاهر بن عاشور : المجئ : مجاز مشهور من حدوث الشئ وحصوله – وذهاب الخوف مجاز مشهور فى الانقضاء ، أى زوال أسبابه فى أن يترك القتال أو يتبين أن لا يقع قتال .

(٣) ينظر / تلخيص البيان فى مجازات القرآن / الشريف الرضى /صـ٢٤٣/ ت/د/ على محمود مقلد / دار مكتبة الحياة –بيروت سنة١٩٨٦م.

بأن المشبه هو عين المشبه به [١]، ونكتة الصورة الاستعارية تكمن فى إظهار علو أصواتهم، وانتفاخ أوداجهم بعد ذهاب الخوف وانقضائه دون حياء مدعين لأنفسهم الجبانة فضلا وشجاعة يقول .

ومن خصائص التراكيب انبناء هذه الصور على أسلوب الشرط بـ (إذا) التى تفيد التأكيد وقطع الشك، لمجيئها فيما يتيقن وجوده[٢]، وبهذا يظهر أثرها فى التصوير بأن هذا منهم حقيقة كائنه كاشفة عن صورة مضحكة لقوم يذهلون ويرتعبون لما يحين القتال فإذا انتهى وذهب الخوف خرجوا من جحورهم بأصوات متعالية صاخبة ينسبون لنفسهم زوراً وبهتانا مواقف وبطولة، والنفس الكريمة تذوب حياء، وتموت خجلا أن ترى نفسها فى مثل هذه الصورة، وأنى للمنافقين شرف وكرامة ؟ وإذا وقفنا على دور أسلوب الشرط وأهميته فى التصوير، فلا نغفل عن أهمية الطباق بين (جاء) و(ذهب) فى توضيح المعنى، فبه نقف على حاليهما وقت مجئ الخوف ووقت ذهابه ، فنرى قوما بلا رجولة ولا شهامة ولا كرامة، تعجيبا وذما وتشنيعا وكلاهما – الشرط والطباق – أدى إلى تلاحم الأسلوب وترابطه.

وتكتمل الصورة بقوله: (أشحة على الخير) دلالة على بخل شديد، وحرص قمئ على الحياة الدنيا، فلا يبذلون شيئا من مال ونفس وجهد، وتفيد (على) الاستعلاء، فشحهم مستعل على الخير الذى عندهم اعتقادا منهم عدم وجود خير غيره، ومجئ ذلك بعد الاستعارة السابقة يظهرهم فى صورة مشينة، فمع ادعائهم بعد ذهاب الخوف فضلا وإقداما لا يبذلون شيئا مما هو فائض عندهم.

ثم يدل التعبير فى قوله: (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) على علة خسرانهم وتشوهات أنفسهم حتى كان منهم التعويق والتشتيت والادعاء بما لم يفعلوا، وذلك لخلو قلوبهم من الإيمان، وتفيد الإشارة تمييزهم، والتنبيه على

(١) ينظر: أسرار البلاغة / ص ٣٠٢ وما بعدها، والإيضاح / للخطيب القزوينى / ص ١٧٢.
(٢) ينظر/ دلائل الإعجاز / ص ٨٢، والجنى الدانى – فى حروف المعانى / الحسن بن قاسم المرادى / ص٣٦٧.

جدارتهم بما بعد الإشارة من نفى الإيمان وإحباط الأعمال، والبعد فيها تحقير لهم وازدراء لموقفهم وذم الكامن فى جوانيتهم من شح وادعاء بالباطل.

ويقرر أسلوب النفى (لم يؤمنوا) انتفاء الإيمان عنهم وإن أقرت به ألسنتهم، فدخول (لم) على صيغة المضارع يقلب معناه إلى الماضى، تأكيداً لعدم اهتداء قلوبهم وهذا كشف لمستورهم الذى كانوا يظهرون خلافه للمسلمين، والمعنى يعود إلى منبعه فى قوله السابق: (قد يعلم الله المعوقين منكم...).

وصيغة الماضى (فأحبط...) تفيد تحقق خسرانهم ووقوعه، والفاء تفيد سرعة إحباط أعمالهم لانتفاء إيمانهم، ولا تخلو من معنى السببية، فعدم الإيمان سبب لخسرانهم، بل هو أساس كل خسران، وإذا انتفى نفع العمل فلا قيمة للأقوال من باب أولى، ولذا لم يشر إليها.

وختمت الآية بقوله: (وكان ذلك على الله يسيرا) للدلالة على تمام القدرة، فما من شيء عسير عليه عز فى علاه، وفى الإشارة تمييز لإحباط أعمالهم وتنبيه إلى عظمته، ويتسق مع هذا إظهار الاسم الجليل (الله) فى موضع الإضمار، فمقتضى الظاهر أن يقال: (وكان ذلك عليه...) لكن النظم عدل عن ذلك لإفادته – مع تقديمه على يسيرا – الإجلال والتعظيم وتربية المهابة، وفى التقديم تمام الفاصلة القرآنية، وهى ذات تأثير فى تنغيم النظم وتطريبه، والتطريب معشوق للنفس، فبه تُقْبِلُ وتَقْبَلُ ومن ثم يقر المعنى منها قراره، ولا ينسى ما لكان من زيادة تأكيد تمام قدرته تعالى، وأنه كان ومازال قديرا، وفى الجملة تهديد لهم بأنهم لا يقام لهم وزن، ولا تعتبر لهم قيمة لانتفاء الإيمان عنهم.

نظم الآية ثرى بكلماته وتراكيبه وصوره وطباقه، مما يلهم المتلقى أثر الألسنة المنافقة فى النيل من المسلمين، والتطاول عليهم، وتشتيت فكرهم، وفى ذلك تحذير من الوقوف موقفهم، وتحصين للمجتمع المسلم من الانخداع بألاعيب المنافقين وإفك ألسنتهم، فهى كالسيوف الحداد إن لم يكن أثرها أخطر، وضررها أعمق.

الموقع السابع: فى سياق سورة (الفتح)

فى مقام الذم والتشنيع جاء قوله تعالى من سورة (الفتح): ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ الفتح: ١١

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تتناول سورة الفتح حادث صلح الحديبية، وتتضمن بشارة المؤمنين بحسن عاقبته، وما يأتى بعده، وتقرر أنه نصر وفتح وهو « مدلول اسمها الذى يعم فتح مكة وما تقدمه من صلح الحديبية وفتح خيبر ونحوهما، وما وقع تصديق الخبر به من غلب الروم على أهل فارس وما تفرع من فتح مكة المشرفة من إسلام أهل جزيرة العرب، وقتال أهل الردة وفتوح جميع البلاد يجمعه حكمة إظهار الدين على الدين كله، وهذا كله فى غاية الظهور بما نطق ابتداؤها» [(١)] المقام على أسلوب توكيد مؤثر بـ (إن) واسمية الجملة، وضمير العظمة والجلال (نا) وتعظيم شأن الفتح الذى أسند إلى ضمير العظمة.

ومن هذا الفتح إنكشاف المخلفين – بفضل الله تعالى – أما النبى ﷺ وأمام أصحابه بأنهم لسوء ظنهم بالله العليم القدير، ولتوقعهم شرا يحيط بالمسلمين، ولارتباطهم بالحياة الدنيا تخلفوا عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، ورفضوا الخروج مع النبى، وهذا الكشف والهتك لستر مخبوئهم من فتوحات الله على رسوله، ومن إكرامه له وللمؤمنين معه، ومن هذا الوجه ترتبط الآية بمقصود السورة وتلتحم به.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

التفت السياق بهذه الآية وبما بعدها – بعد ذكره عاقبة من ينكث ومن يوفى – إلى الحديث عن المخلفين من الأعراب، وكشف سوءات أنفسهم، ومن هذا المنطلق ترتبط الآية بسياقها لكونها تظهر صنفا ممن نكث وتخلف، فهى كالبرهان على ذكر عاقبة من نكث ليعتبر المتلقى ويحذر.

التحليل البلاغى:

(١) نظم الدرر / ٧ / ص ١٨٣ ، وينظر / التحرير والتنوير / ١٢/صت١٤٢.

يجتمع نظم الآية على إظهار انغماس لسان المنافقين فى الكذب والنفاق والادعاء بالانشغال بالأموال والأهلين، والكذب فى طلب الاستغفار، وأنه منهم قول بلسان منافق منقطع الصلة بالقلب، وافتتح بدخول السين على المضارع (سيقول لك...) وهو حرف منبئ عن قرب قولهم هذا الذى قررته الآية بعد رجوع المسلمين إلى المدينة، وفى التعبير بـ (لك) وتقديمه دلالة على حرصهم أن يكون منهم هذا القول للرسول الكريم –ﷺ– مباشرة دون واسطة، طمعا فيما يعرفون من سماحة خلقه، وسعة صدره، ورقة قلبه، استشرافا منهم لقبول أعذارهم، وفيه – أيضا – تنبيه عل قبح كذبهم لكونه بين يدى النبى –ﷺ– وشناعة موقفهم الفاسد، فقد غاب عنهم عظم مكانته، وسمو منزلته، وما هو عليه –ﷺ– من فطنة، وما يتلقاه من ربه من توجيه وإرشاد، وهذا – لعمرى – موقف من ذهب عقله، وضل سعيه.

وإنما جئ بـ (المخلفون) مسند إليه دون تحرير أسمائهم ليشمل كل من تخلف عن رسول الله، ولتوفير الاهتمام على الوصف بالتخلف وإشهاره، فهو أولى من أن يذكروا بأسمائهم أو أسماء قبائلهم، حتى صار هذا الوصف علما عليهم لا يعرفون إلا به، وهو أمر مشين فاضح لهم لا ترفع لهم به بين قبائل العرب هامة، وبنى على صيغة المفعول للدلالة على أنهم غير جديرين بأن يكونوا فى مقام الجهاد مع رسول الله –ﷺ– وذلك لفسادهم، وسوء طويتهم، فهم كالشيء المتروك تفاهة ووضاعة، فلا يهتم بهم، ولا يؤبه لهم، وهذا من الله تعالى فتح للمؤمنين وتأييد لهم، إذ من كان هذا شأنه كان مفسدا وهادما وبخاصة فى ميدان القتال والجهاد، وما عرف نصر المؤمنين بكثرة، ولكن بإيمان وصبر وتجرد وتجلد، وخص المتعلق (من الأعراب) ليفيد تعيينهم دون غيرهم ممن تخلف بجسده من خلص الأنصار، وكان حاضراً بقلبه [1].

ويدل التعبير فى قوله: (شغلتنا أموالنا وأهلونا) على رضاهم بالحياة الدنيا عن طلب المعالى فى الخروج مع رسول الله –ﷺ– وصيغة الماضى تشير إلى امتزاج دمائهم بالحياة،اختلاطهم بها، وجمع بين (الأموال) و(الأهلون) لأنهما أهم

(١) نظم الدرر / ٧/ ص ١٩٦.

أسباب الارتباط بالحياة الدنيا وأبرز مظاهرها وأظهر زينتها، قال تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الكهف: ٤٦ والجمع فيهما مع الإضافة إلى الضمير (نا) يكشفان عن شدة الارتباط بهما والركون إليهما، وقدم (الأموال) على (الأهلون) لأهمية المال عندهم، وتفضيلهم له على غيره، وهذا تصوير لنفوس ملآنة خسة وخبثا، وهذا الارتباط الوثيق بين النفوس والأموال دعا البيان القرآنى فى غالبه إلى تقديم المال على النفس وعلى البنين والأهل، وللناس أموال وأهلون ومع هذا خرج المجاهدون وضحى المحتسبون، ويبدولى أنهم أحسوا بالعار والشنار فلم يظهروا ما شغلوا عنه، فلو صرحوا به لقالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا عن الجهاد معك، ولا مقارنة بين هذا وذلك، فكأنهم يخبئون شناعتهم، ويخفون عورتهم.

وصيغة الأمر (استغفر) فى قوله: (فاستغفر لنا) غرضها البلاغى التوسل والتذلل، أى: اسأل لنا المغفرة من الله تعالى، والفاء للسببية، ما قبلها من ترك الخروج وتخلفهم عنه سبب فى طلب الاستغفار، ولم يكن هذا منهم صدقا، وإنما مجرد قول باللسان، دل على ذلك التعبير بقوله: (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) وعبر بالألسنة دون الأفواه التى درج البيان القرآنى على استعمالها فى سياق الحديث عن المنافقين دائما « لما صح بعد ذلك إيمان »[1] بعضهم وإخلاصهم لله تعالى، ويؤكد أسلوب النفى (ما ليس فى قلوبهم) انقطاع قول اللسان عن الصلة بالقلوب، فمن صدق لم يشغل، ومن تجرد لم يمنع.

أما قوله تعالى: (قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعا) فيؤكد تمام قدرته تعالى وكمال علمه وإحاطته، وأنه فعال لما يريد، وصيغة أسلوب الأمر (قل) تفيد التنبيه، وهى أقوى وأقصر أداة تنبيه فى البيان القرآنى [2] وتكثر فى مقام الجدال ومناقشة المخالفين، وفيها مع التنبيه تشريف المأمور – ﷺ– وتكريمه، والوجه البلاغى لأسلوب الاستفهام بـ (من) التهديد

(١) نظم الدرر / ٧/ ص ١٩٦.

(٢) ينظر / كَلاَّ – موضعها ودلالتها فى الذكر الحكيم / د/ إبراهيم على حسن داود / ص ٥٧، ٥٨، مكتبة كلية اللغة العربية بالمنوفية.

والترهيب من عاقبة تخلفهم ونفاقهم، وعلى ذلك فلا مكان للاستفهام وإنما للوعيد والتهديد، وجاء على صورة الاستفهام ليلفتهم إلى النظر والتأمل والتفكير فيما وضعوا أنفسهم فيه (١)، ويلمح وراء الأسلوب دعوة إلى الاستسلام لله تعالى والخضوع لأمره.

ويتآزر أسلوب الالتفات من الغيبة فى قوله: (سيقول لك المخلفون...) إلى الخطاب فى قوله: (فمن يملك لكم من الله...) وتقديم الجار والمجرور (لكم) مع دلالة الاستفهام على التهديد والتخويف، فلا أحد يملك من الله شيئا لهم ولا لغيرهم وإنما خوطبوا تخويفا وترهيبا، وزيد بإيثار الاسم الأعظم (الله) وبدلالة (شيئا) على العموم والشمول، فلا يمنعهم من الله تعالى إن أراد بهم ضرا أو نفعا مانع، وتنكير (ضرا) و(نفعا) يفيد العموم، فيشملان كل ضر وكل نفع لهم ولأموالهم ولأهليهم، وقدم (ضرا) مناسبة لمقام التخويف والترهيب والتهديد، فما تخلفوا إلا حرصا على السلامة وإيثار الحياة الدنيا، والأردع لهم تقديم الضر، فلا أحد يملك ذلك إلا هو سبحانه، وفى خطابهم بـ (بكم) وتقديمه تناسقا مع (لكم) فى قوله: (يملك لكم) حصار لهم بالقدرة والهيمنة والإحاطة، مع إيضاح المعنى بالطباق بين (ضرا) و(نفعا) بيانا لعظمته تعالى فى القدرة على الشيء وضده زيادة فى التخويف، وتقريرا للترهيب.

ومن خصائص النظم التعبير بـ (إن) الشرطية التى تأتى فى الأمر الغير مقطوع به، وإيثارها على [إذا] التى تأتى فى الأمور المتيقنة، وذلك للدلالة على أن أحدا لا يملك لهم شيئا تجاه أى إرادة إلهية بالضر أو بالنفع، وهذا نمط عال يحتذى به، كما جاء مثله فى قول شوقى (٢):

إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا   خمائل السندس الموشية الغينا

(١) ينظر / من بلاغة النظم العربى / د/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة /٢/ ص ١١٢، ١١٣ / عالم الكتب

(٢) ديوان أحمد شوقى /١/ص ١٤٧ وما بعدها / شرح وتعقيب /د/أحمد محمد الحوفى / دار نهضة مصر.

فقد آثر مجئ (إن) للدلالة على أن أى إرسال من الشمس لأشعتها التى تغازل بها شاطئى الوادى تؤثر تأثيرا بليغا، وسرعان ما تستجيب تربة الوطن الحبيب، فترتدى أزهى الملابس، وتكتسى بالخضرة.. حياة.. وامتلاء.. وازدهارا [١]، وفصلت الجملة لشبه كمال الاتصال، فهى بمثابة جواب عن سؤال تثيره جملة (شغلتنا...) تقديره: فماذا قيل لهم ؟ فجاءت هذه جوابا عنه.

أسلوب الاستفهام وسياقه يجلد ظهورهم بسياط التهديد والتخويف الذى زيد قوة وتأثيرا وعمقا بقوله: (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فالمعنى أوسع، والترهيب أشمل، حيث لا تبقى وراءه صورة لأعمالهم، ولا حالا من أحوالهم إلا كان تعالى محيطا بها، وهذا مسلك مهم من مسالك التوكيد يجب الالتفات إليه.

و(بل) للإضراب المبطل كذبهم بالشغل وطلب الاستغفار، وتأكيد علمه تعالى بهم ظاهراً وباطنا، وتفيد (كان) فى مثل هذا التركيب توكيد الخبر، إذ كان سبحانه وما يزال خبيرا بهم وبغيرهم، و(ما) مع صيغة المضارع فى (بما تعملون) يفيدان شمول كل ما يصدر عنه من عمل الآن وفى المستقبل، وقدم على متعلقة (خبيرا) للاهتمام بما يكون منهم من شأن ترهيبا وتخويفا، وصيغة المبالغة تدل على العلم الكامل بخفايا الأمور وبواطنها [٢]، ومثله لا يخفى عليه ما كان منهم من تخلف وكذب وخداع.

فى النظم تأكيد على فساد قول اللسان إن لم يكن مصدره القلب، حتى وإن كان ظاهر القول صالحا، ويترتب على ذلك تهديد وتخويف لمن نافق وكذب، دعوة إلى الصدق والإخلاص فى التوجه إليه تعالى، وأن نجعل قول ألسنتنا من وراء قلوبنا فى أى مجال يكون للسان فيه مجال، وأن تكون هى ملهمته وسيدته ومصدره.

الموقع الثامن: فى سياق سورة (الممتحنة)

(١) نونيتا ابن زيدون وأحمد شوقى / دراسة بلاغية تحليلية وموازنة / للباحث / رضا السعيد فايد/ ص ٣٣٦ / كلية اللغة العربية بإيتاى البارود.

(٢) ينظر / المفردات / مادة / خبر / ص ٢٠٣، ٢٠٤.

فى مقام ذم المشركين وتقبيح مواقفهم مع أهل الإيمان جاء قوله تعالى فى سورة المتحنة: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الممتحنة: ٢

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تقصد السورة إلى بيان براءة من أقر بالإيمان ممن اتسم بالعداوة دلالة على صحة مدعاه، كما أن الكفار تبرءوا من المؤمنين وكذبوا بما جاءهم من الحق، لئلا يكونوا على باطلهم أحرص من المؤمنين على حقهم. وتسميتها بالممتحنة أوضح شئ فيها وأدله على ذلك، لأن الصهر أعظم الوصل وأشرفها بعد الدين، فإذا نفى ومنع دل على أعظم المقاطعة لدلالته على الامتهان بسبب الكفر الذى هو أقبح العصيان [1]. وتتجه السورة بكل مفردات بنائها النظمى وتشكيلاته إلى تربية الأمة وإعدادها إعدادا ربانيا إيمانيا.

ثم تأتى الآية الثانية – الآنفة الذكر– لتبصر المتلقين بما يحمله الأعداء من مكر وخداع وتحين الفرص للنيل من المسلمين، فلا تبرق لهم بارقة فى الوصول بما يملكون من أنواع الأذى إلى المسلمين حتى يوقعوا بهم ما يقدرون عليه من أذى وتنكيل، وذلك تربية للأمة على اليقظة والفطنة فى التعامل مع أعدائها، وهذا منسول من مقصود السورة ووجه من وجوه تفصيله.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

جاءت الآية ثانية للنهى عن اتخاذ عدو الله وعدوهم أولياء لتكشف عما عند الأعداء من شر متأصل فيهم، فلا يتمكنون من أذية المسلمين إلا وأصابوهم بما يكرهون، فالآية كالتعليل للنهى عن اتخاذهم أولياء بإظهار جانب من عداوتهم، وبه يستبان وجه تواصل السياق وترابطه.

التحليل البلاغى:

(١) نظم الدرر /٧/ ص ٥٤٧ وينظر / التحرير والتنوير /١٣/صـ١٣١ وفى ظلال القرآن /٦/صـ٣٥٣٦.

يظهر نظم الآية جانبا من جوانب اتخاذ اللسان آلة للصد عن دين الله تعالى ببسطه فى أذية المؤمنين والنيل منهم، وهو جانب قمئ منحرف بالنعمة عن دلالتها على ألوهيته تعالى وقدرته وإحسانه إلى عباده، وأقيم النظم على أسلوب الشرط بـ (إن) التى تأتى فى الأمر المشكوك فى حدوثه، واستعمالها فيما هو مقطوع به يدل على أن أعداء الأمة يتحينون أى منفذ ينفذون منه إلى التنكيل بها حتى لو كان غير مؤثر فإنهم لا يتركونه كرها وعداء، ومن جانب آخر – وربما كان الأهم – تبشر بتمكين الله تعالى لرسوله –ﷺ– وللمؤمنين، ومن ثم فَقَلَّ ما يجدون من فرصة لأذيتهم، وكأنه صار على سبيل الفرض والمثال.

وعبر بالفعل (يثقفوكم) لما فيه من تمكن وحذق وظفر بما يراد، يقول ابن فارس: « الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليهما يرجع الفروع وهو إقامة دَرْء الشئ ، ويقال ثقفت القناة إذا أقمت عِوَجها،... وثقفت هذا الكلام من فلان، ورجل ثقف لقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء. ويقال: ثقفت به إذا ظفرت به،... فإن قيل: فما وجه قرب هذا من الأول ؟ قيل له: أليس إذا ثقفه فقد أمسكه. وكذلك الظافر بالشيء يمسكه. فالقياس بأخذهما مأخذا واحدا»[1] ففى مادة الكلمة توضيح لما هو متمكن من نفوسهم من عداوة للمسلمين وتقرير له، وفى الصياغة دلالة على تجددها منهم، واستمرارهم فى التربص بالمسلمين، تحينا للفرص، واغتناما للحظات.

وجواب الشرط (يكونوا لكم أعداء...) باشتماله على فعل الكون و(أعداء) وتقديم الجار والمجرور (لكم) يؤكد عداوتهم، ويظهر شرهم، وينبه إلى أنه شأن متأصل فيهم، ويوضح النظم جانبا من هذه العداوة بقوله: (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) فهم لا يغرون غيرهم من جنود وحلفاء بالنيل من المسلمين، ولكنهم يفعلون ذلك بأيديهم ضربا وقتلا، وبألسنتهم سبا وشتما وتشتيتا، واختير الفعل (يبسط) لدلالته على أنهم لو قدر لهم التمكن من المسلمين، لأوقعوا بهم كل ما يستطيعونه من تنكيل بالأيدي، وكل ما يقدرون عليه بالألسنة، على سبيل

(١) مقاييس اللغة /١/ص ٣٨٣ / مادة / ثقف.

الاستعارة التبعية المفيدة الكثرة والشدة فى العداوة[١]. فأصل الكلمة يدل على امتداد الشئ فى عِرَض أو غير عِرَض فالبساط: ما يبسط، والبَساط: الأرض وهى البسيطة،... ويد فلان بسْط: إذا كان منفاقا، والبسطة فى كل شيء: السعة[٢]، وهذا تبيين لما يكنه أعداء الأمة لها، ويؤازره تقديم (إليكم) اتساقا نظميا ودلاليا مع تقديم (لكم) فى (يكونوا لكم أعداء)– لإفادة تأكيد عداوتهم ومواقفهم المخزية تجاه المسلمين، والتعبير بـ (السوء) ليشمل كل ما من شأنه أن يسوء، تقول: ساء يسوء سوءاً: فعل به ما يكره، والسوء: الفجور والمنكر [٣]، وهذا من ذكر الخاص بعد العام، إذ العداوة كلمة جامعة لكل ما من شأنه يؤذى ويؤلم، ومنه بسط الأيدى والألسنة بالسوء، وإنما خص لكونه أظهر فى العداوة، وأعمق نيلا من المسلمين وأشد أثرا فيهم.

ويؤكد قوله: (وودوا لو تكفرون) حقد الأعداء على المسلمين لما أكرموا به من نعمة الدين الحق، فجئ بالفعل (ود) للدلالة على حرص شديد، ورغبة عارمة، يكادان يطيحان بعقولهم وقلوبهم حتى يروا المسلمين يوما وقد خسروا ما ميزوا به، وارتدوا عنه، فالود: الحب يكون فى جميع مداخل الخير [٤]، وفى هذا إلماع إلى أنهم يرون فى ذلك أمرا يحبونه ويجاهدون لتحقيقه لما فيه – عندهم – من خير، ولا يكون هذا إلا من نفوس عتت وبلغ الجهل منها مبلغا، وسر تغيير صيغ المضارع التى جاء عليها: (يثقفوكم.. ويكونوا.. ويبسطوا..) إلى الماضى فى (ودوا) الدلالة على أنه أمر متحقق فيه واقع منهم ضارب بجذوره فى أعماق أعماقهم، وتجاوب مجئ (لو) مع المادة والصيغة فى الدلالة على حبهم لهذا الأمر وتمنيهم له غاية المنى.

(١) ينظر/ تلخيص البيان فى مجازات القرآن / صـ٣١٣، ٣١٤.
(٢) مقاييس اللغة / مادة / بسط / ١/ ص ٢٤٧.
(٣) لسان العرب / مادة / سوأ.
(٤) السابق / مادة / ودد.

وعطف الجملة على ما سبق من باب وقوع الماضى لفظا مع (إن) وسره البلاغى كما يقول الزمخشرى: « إن فيه نكتة كأنه قيل وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم يعنى أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفارا، وردكم كفارا أسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم باذلون لها دونه والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند أصحابه »[1] وقد علق الخطيب عليه قائلا: « وهو حسن دقيق لكن فى جعل «وودوا لو تكفرون » عطفا على جواب الشرط نظر، لأن ودادتهم أن يرتدوا كفارا حاصلة وإن لم يظفروا بهم فلا يكون فى تقييدها بالشرط فائدة، فالأولى أن يجعل قوله: «وودوا لو تكفرون » عطفا على الجملة الشرطية »[2] وأما الطاهر بن عاشور: فقد جعل الجملة حالا من ضمير (يكونوا) أى: وهم قد ودوا من الآن أن تكفروا، فكيف لو يأسرونكم أليس أهم شيء عندهم حينئذ أن يردوكم كفارا... [3].

وإذا كان لا مانع من عطف الجملة على جملة الشرط كلها – كما يرى الخطيب – فهو الأولى، لما فيه من تأكيد رغبتهم الشديدة الدائمة فى ارتداد المسلمين كفارا، وعلة التأخير أن السابق أبين فى العداوة، وهذا أنكى، ويكون النظم قد ترقى من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الأضعف إلى الأشد والأقوى ، فالأشد على المؤمنين أن يؤذوا فى دينهم، وأن ينال من عقيدتهم، فدون ذلك بذل المهج وقطع الأعناق، وبذلك يكون الترقى متناسقا مع ما فى نفوس الفريقين.

لقد تآزر النظم على إظهار أثر اللسان المذموم فى الصد عن دين الله والتنكيل بأتباعه، وتقرير ذم هذا المنهج المعوج، والتشنيع على سالكيه لما يؤدى إلى هلاكهم وخسرانهم فى الدنيا والآخرة.

---

(١) الكشاف / ٤ ص٣٧٧، وينظر / نظم الدرر / ٧ / ص ٥٥٢، وخصائص التراكيب / د/محمد أبو موسى ص ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) الإيضاح / ص ٥٧.

(٣) التحرير والتنوير / ١٣/ ص ١٤٠.

ختام:

ورد اللسان فى هذا المقام فى ثمانى مواضع، توافر النظم فيها على ذم اللسان وتقبيحه، والتشنيع على من سلك به هذه المسالك المذمومة، كالكذب على الله تعالى وتحريف كلماته، وسوء الأدب فى مقام خطاب النبى –ﷺ–، ولعنهم على لسان دواد وعيسى بن مريم لعصيانهم أمر الله واعتدائهم على الأنبياء، وجعلهم لله ما يكرهون كذبا وبهتانا، وتدخلهم فى قضية التشريع تحليلا وتحريما افتراء على الله تعالى شأنه، واجتماع المنافقين على حرب الألسنة والإشاعات المشتتة والصارفة للمسلمين عن غايتهم وتحقيق أهدافهم، وكذب المخلفين عن رسول الله –ﷺ– وانقطاع قول اللسان عن القلب كذبا وزورا، وبسطه إلى المسلمين للنيل منهم والتنكيل بهم.

وقد بدأ البيان القرآنى فى تناوله لآيات هذا المقام – مقام الذم والتشنيع – بنموذج من لى اللسان بالكتاب عن مواضعه، وتحريف مقاصده فى الموضع الأول، للإشارة إلى فساد التوحيد، والانحراف عن المنهج، ثم فى تحريف الكلم عن مواضعه للتطاول على النبى وإيذائه فى الموضع الثانى، لينبه من وراء ذلك على أن هذا الضلال والانحراف والتطاول سبب لما يأتى بعد من مواضع الإتيان باللسان فى مقام الذم والتشنيع، وجاء الترتيب تنازليا بدأ بالأعلى ثم الذى يليه.

والسياق فى هذا المقام مبسوط بطئ متمهل هادئ الإيقاع، يكشف عن سلوك أهل الكتاب والمشركين المثير للدهشة والاستغراب، فهم يكذبون على الله تعالى ويحرفون كلماته وينسبون إليه ما يكرهون، ويطاولون على نبيه وأتباعه، وعلة هذا البسط والتمهل تقرير المعنى، والتعجيب من شأنهم فى استعمال نعمة اللسان وآلة البيان فيما ينافى العبودية للمنعم، وفيه فضح لهم، وتهكم بهم، وتقبيح على سوء صنيعهم، فكأنهم لما بسطوا ألسنتهم فيما فيه كفر وانحراف وتطاول وأذى ، بسط القول عنهم تشنيعا عليهم وتعجيبا من حالهم، وغلب على النظم أسلوب التوكيد بروافده العديدة المديدة، تقريرا لحقيقتهم، وتحذيرا من الوقوع فى مصائبهم التى جعلوا من اللسان بطلها فأوردهم المهالك.

ثانياً : اللسان: ومقام الدعاء والضراعة:

اشتمل البيان القرآنى على كلمة اللسان بمعناها الحقيقى، فى مقام الدعاء والتضرع إلى الله تعالى فى ثلاثة مواضع، فى سورة (طه) و(الشعراء) و(القصص) وثلاثتها فى سياق قصة موسى عليه السلام وقد أمره ربه أن يواجه فرعون بالحق، ومعلوم أن موسى عليه السلام نشأ فى قصر فرعون وتربى فيه، ويعرف عنه الكثير من غلظة وطغيان، ووكز رجلا من قوم فرعون فقضى عليه، فيلجأ إلى ربه، ويبسط حاجته، ويكشف عن ضعفه، ويسأله تأهيله ليقوم بحق الدعوة إلى الله تعالى بأن يحل عقدة لسانه حتى يفقهوا قوله، ويطلب عونه بأن يرسل معه هارون لما وهب من فصاحة اللسان، وقد استجاب الله دعوته، فهو الكريم الذى لا يرد قاصده، ولا يحرم سائله، وهنا تظهر قيمة اللسان فى الدعوة إلى الله تعالى، وتعلو منزلته، واللفت إلى أهمية الارتقاء به تدريبا وتثقيفا للتمكين لدعوة الله فى الأرض.

البيان والتفصيل:

الموقع الأول: فى سياق سورة (طه).

فى سورة (طه) جاء قوله سبحانه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ طه: ٢٧ ، ٢٨

مقصود السورة وعلاقة الآيتين به:

تقصد سورة (طه) إلى تقرير وحدانية الله تعالى، والإعلام بإمهال المدعوين والحلم عنهم، والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم زيادة فى شرف داعيهم – ﷺ – [1]، واشتملت على قصص للأنبياء، وحديث عن مشاهد وأحوال يوم القيامة، وتوجيهات للنبى تربية على الصبر فى مواجهة الصد والخصوم.

ونظم الآيتين الكاشف عن لجوء سيدنا موسى –عليه السلام– إلى ربه، واستجابته تعالى له، وتحقيق مراده – يؤكد كمال قدرته تعالى وطلاقه سمعه

(١) ينظر / نظم الدرر /٥/ ص ٣، وصفوة التفاسير / محمد على الصابونى /٨/ ص ٨١٣.

ورعايته لأنبياته وأوليائه توجيها لإخلاص توحيده، وصدق التوجه إليه، وهذا وجه من وجوه تفصيل مقصود السورة وتبيانه.

وجه ارتباط الآيتين بسياقهما:

ترتبط الآيتان بسياقهما ارتباطا وثيقا، إذ جاءتا ضمن سياق قصة موسى عليه السلام لتظهر جانبا منها، وهو جانب دعائه – عليه السلام – ربه أن يؤهله للقيام بواجب الدعوة، وإتمام الرسالة، فطلب شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل عقدة لسانه، ومؤازرته بأخيه، واستجاب الله له، والسياق يربطهما بما قبلهما وبما بعدها ليكشف عن هذه الحلقة من قصة موسى، ويقرر فى نفوس المتلقين أهمية اللجوء إلى الله تعالى وقت الحاجة، وقصده عند تحقيق المراد.

التحليل البلاغى:

اقتضى مقام المناجاة وإطالة السؤال، وطلب العون أن تبرز صيغة الأمر فى نظم الآيات: (اشرح. يسر. احلل. اجعل) وغرضها البلاغى الدعاء، واستعمال الأمر مقام الدعاء يظهر كمال خضوع العبد لمولاه، ويبين رغبته فى قضاء حاجته، وتحقيق أمنيته وكأنها أمر مطلوب من ربه تعالى.

واشتملت صيغة الأمر وجملته (واحلل عقدة من لسانى) على صورة بيانية، بتشبيه ما بلسانه من حبسة ولكنة بحبل عقد عقدة موثقة، وحذف المشبه ورمز إليه بقوله: (عقدة) على سبيل الاستعارة المكنية[1]، وذكر ما يلائم المستعار منه (احلل) وما يلائم المستعار له (لسانى) ومن ثم فالاستعارة مطلقة[2]، وهى تظهر شدة حبسة لسانه عليه السلام وقوتها ومعاناته منها، ومن جانب آخر تكشف عن نفس كريمة ذى همة وعزيمة فى إتمام ما كلفت به من ربها على وجه الكمال، فسألت ربها أن تحل هذه العقدة التى جاءت نكرة لإفادة التعظيم والشدة، مما يجعل للتنكير تأثير قوى فى الصورة الاستعارية، ولعل حرص النظم على بيان شدتها دعاه إلى المجئ بحرف الجر (من) دون أن يقال: عقدة لسانى، ومجئ

(١) ينظر / تلخيص البيان فى مجازات القرآن /صـ١٧٦ .

(٢) لأن اقترانها بما يلائم المستعار منه ترشيح، واقترانها بما يلائم المستعار له تجريد، واجتماعهما يؤدى إلى تعارضهما وتساقطهما، فكأنه لا ترشيح ولا تجريد /ينظر / بغية الإيضاح / ٣/ ص ١٢٠ وما بعدها، وأفنان البيان / ص ١٨٠.

اللسان بمعناه الحقيقى فى مقام مناجاة موسى عليه السلام يعكس أهمية هذه الجارحة فى التبليغ عن الله تعالى.

ويدل جواب الأمر (يفقهوا قولى) على هذا ويؤيده، ويلفت من جانب آخر من المعنى على إخلاص نبى الله موسى وتجرده لدعوته، فما طلب حل عقدة لسانه لكى يكون مبينا فصيحا إلا ليحقق هدفه، ويؤدى مهمته، واختيار الفعل (يفقهوا) يعين على الوقوف على هذا، فالفقه: إدراك لطائف الأشياء ودقائقها، ويراد به الفطنة [١]، والثابت عن أهل اللغة أن الفقه حاصل تأمل وتدبر لكلام، وإدراك لتأويله [٢]، والحاجة إلى هذا الفقه الحاصل من استبصار وإدراك وتدبر لكلام الله تعالى ضرورية للفهم عن الله وإقامة منهجه والإفادة من خيره وفضله، وإصلاح لسان موسى من حبسته طريق لحصول ذلك للمدعوين.

ووصل بين قوله: (واحلل عقدة من لسانى) وقوله: (رب اشرح لى صدرى...) للتوسط بين الكمالين، فقد اتحدت الجمل فى الإنشائية مع وجود مناسبة مصححة للعطف وهى ورودها فى سياق قصة واحدة، وتكوينها مناجاة وضراعة من قلب خاضع ولسان خاشع، وإلحاحا حميدا، وطلبا للعون والمساعدة، ومن محسنات الوصل البدء بـ (رب) ثناء وإحساسا بالرعاية والحفظ والتأييد.

الموقع الثانى: فى سياق سورة (الشعراء)

فى سورة (الشعراء) أتى قوله تعالى: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تتناول السورة قضية التوحيد، والإيمان بالوحى، والتذكير بالدار الآخرة، والتخويف من عاقبة الظالمين والمكذبين، وافتتحت بنظم ينوه بشأن القرآن العظيم، ثم تم بناؤها الكلى على عنصر القصص لما له من تأثير وتوجيه، ثم ختمت بالرد على المكذبين الذين زعموا أن القرآن من تنزل الشياطين، وبه تناسق البدء والختام، وعاد الانتهاء إلى الاستهلال.

(١) لسان العرب / مادة / فقه.

(٢) ينظر / العلم والفقه والمعرفة.. /د/ محمود حمدان / ص ٧٥ – ٧٧.

وللآية بذلك وجه ارتباط، لإظهارها شكوى موسى –عليه السلام– إلى ربه، وخوفه من ضيق صدره بسبب تكذيب قومه، وعدم انطلاق لسانه بما كلف به .

وجه ارتباط الآية بسياقها:

أما وجه ارتباطها بسياقها، فقد جاءت فى سياق مبين عن جانب من قصة موسى –عليه السلام– وهذا الجانب يعتمد على مشاهد متتابعة فى تصاعد مستمر اتساقا مع ما تهدف السورة إليه، وتحقيقا لمقصدها من تقرير الوحدانية وتسلية النبى الحبيب –ﷺ– والتذكير بعاقبة الظالمين، وكانت الآية مع ما قبلها ومع ما بعدها جزءا من هذه القصة، تتناول دعاء موسى وشكواه.

التحليل البلاغى:

عبر بالجملة المضارعة (ويضيق صدرى) عما يعترى أهل العزة والمروءة من انفعالات تجاه من يكذب دعوة الله ويصدعنها، وفى الجملة صورة بديعة، باستعارة الضيق للغضب أو الانفعال، واشتق منه (يضيق) بمعنى يغضب أو ينفعل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وهى تبرز جانبا من حرص نبى الله موسى على ألا يثار منهم فيغضب وينفعل، ويؤثر ذلك على دعوته.

وجاءت الاستعارة التبعية –أيضا– فى قوله: (ولا ينطلق لسانى) فالانطلاق أصيل فى الذهاب، واستعير هنا للفصاحة والبيان، واشتق منه (ينطلق) بمعنى يفصح، والصورة بما بنيت عليه من أسلوب نفى بـ (لا) تكشف عن همته عليه السلام العالية فى كمال أدائه الدعوى وتمامه، فلجأ إلى ربه ليطلق لسانه، حتى يفصح عما أرسل به، ويبين عما طلب منه، والواو إما للاستئناف، والفعلان (يضيق) و(ينطلق) مرفوعان، أى: وأنا يضيق صدرى بالتكذيب، ولا ينطلق لسانى لما به من حبسة، ويجوز نصبهما عطفا على (يكذبون) المنصوب بـ (أن)[1].

ويكون الوصل بين الجمل للتوسط بين الكمالين، وبهذا أختار إعرابهما منصوبين معطوفين ، لأن المناسبة واضحة فى ذلك، فالآيات وردت فى سياق قصة واحدة، وشكلت ضراعة من موسى إلى ربه، وحسن الوصل بمجئ صيغة المضارعة فى الأفعال الثلاثة، والفاء فى قوله: (فأرسل إلى هارون) للسببية، فما

(١) ينظر / التبيان فى إعراب القرآن /٢/ ص ١٦٧.

قبلها سبب فى طلبه إرسال أخيه معه، وفى العبارة إيجاز بالحذف أصله: أرسل جبريل إلى هارون واجعله نبيا، وآزرنى واشدد به عضدى: فأحسن فى الاختصار غاية الإحسان(١)، ويؤيده ما جاء فى الموضع السابق من تفصيل.

الموقع الثالث: فى سياق سورة (القصص)

جاء فى سورة القصص فى قوله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ القصص: ٣٤

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تتجه السورة إلى تقرير وحدانيته تعالى، وإظهار جانب من العظمة والقدرة، واستفيد ذلك من مجئ قصتين: الأولى: تظهر قوة الحكم والسلطان واستعمالهما فى الشر والإفساد، والثانية: تكشف عن طغيان المال، وغرور الثروة(٢)، وفيهما تبدو القدرة القادرة على نصرة الحق، وسحق الظلم والطغيان بما يؤكد فى نفوس المتلقين وحدانية الله تعالى وتمام قدرته على معاقبة كل بما يستحق، وللآية وجه علاقة بهذا لمجيئها فى سياق القصة الأولى، قصة موسى ومواجهته لفرعون وقومه.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

ترتبط الآية بسياقها وتتآزر معه فى توضيح مناجاة موسى ولجوئه إلى ربه تعالى طالبا نصره وتأييده، وقد استجاب له، وحقق مسألته وأهلك عدوه.

التحليل البلاغى:

يظهر النظم خوف موسى – عليه السلام – من فوات مقصود الرسالة وهدف دعوته بأمرين: الأول: أن يقتله آل فرعون، ودل عليه قوله: (قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) الثانى: أن لا يقدر على الإبانة، وأن لا يتمكن من

(١) الكشاف /٣/ص ٢٣٨.
(٢) ينظر/ فى ظلال القرآن /٥/صـ٢٦٧٤ .

الإفصاح كما كلف به، والنظم يوقف المتلقى على حسن تأدب موسى فى مناجاته، وعلى نور بصيرته، حيث عرض فى قوله: (فأخاف أن يقتلون) بطلب النصرة من ربه، لأنه لا يقدر على ذلك سواه، ولما احتاج من يصدقه فى دعوته، ويؤيده فى عرض رسالته، سأل الله تعالى أن يرسل معه هارون، لاستطاعته القيام بهذه المهمة، وأوفى – عليه السلام – فى إلماحه وتعريضه، كما أَوْفَى فى طلبه وسؤاله.

وجئ بالضمير (هو) تعظيما لشأن أخيه، وتنويها بمكانته، وإظهاراً لمناقبه، إذ يصح فى قولنا : أخى .. أفصح ، لكن مجئ الضمير يؤكد المعنى ويقرره ، وفى التعبير بـ (أفصح منى لسانا) علامة على التجرد والإخلاص، والحب لرسالته،إذ أكد من خلال أفعل التفضيل (أفصح) وتقديم (منى) على التمييز (لسانا) على أن هدفه الأسمى أن يتم ما كلف به، ومن ثم فأخوه – كما يرى هو – أفصح منه، وأقدر على الإبانة.

والنكتة البلاغية من تقديم (أخى هارون...) على جملة (فأرسله...) الاهتمام بالمقدم ورعاية شأنه، ودل قوله: (ردءاً يصدقنى) عن حبه لرسالة ربه التى كلف بها، فيبغى العون والتصديق من وراء إرسال أخيه معه، وتلك منزلة فى الإخلاص وعشق الدعوة لا تكون إلا لمن هو مثله إيمانا وهمة وعزيمة، والردء: العون، وأردأه: أعانه، وترادأ القوم: تعاونوا[١]، وتصديقه له يكون « بتخليص الحق، وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة. وقيل المراد: تصديق القوم لتقريره وتوضيحه، لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلى سببه »[٢] على سبيل المجاز العقلى.

ثم جئ بقوله: (إنى أخاف أن يكذبون) تعليلا مؤكدا لسؤاله إرسال أخيه معه عونا وتصديقا، والتأكيد نابع من كونه – عليه السلام– يرغب فى أداء مهمته على الوجه الذى يليق برسالة الله تعالى، وإدراكه ما عليه المرسل إليهم من كفر وطغيان، وتعانق مع التأكيد بـ (إن) واسمية الجملة والمصدر المؤول، الطباق بين

(١) اللسان / مادة / ردأ

(٢) تفسير أبى السعود /٧/ ص ١٣، وينظر / الكشاف /٣/ ص.

(يصدق) و(يكذب) توضيحا لما يهتم به موسى – عليه السلام– بوجود من يصدقه ويقرر الحق ويظهره، وبخوفه من صد قومه وتكذيبهم، وهى معاناة مؤثرة من أحاسيس مثيرة متضادة، وقلق مسيطر، وهم مقيم، وهذا شأن كل أمين على دعوته، حريص على تبليغ رسالته، فما دفعه إلى التأكيد إلا حالته النفسية التى خافت أول الأمر مغبة مواجهة فرعون، وجعلته يلجأ إلى ربه ويطلب الاستعانة بأخيه [١].

ختام:

من دقائق النظم ولطائفه:

استهلت المناجاة فى المواضع الثلاثة بالنداء المحذوف الأداة (رب) دلالة على القرب والود والفناء فى ذات الله تعالى،واصطفى اسم رب دون غيره من الأسماء الحسنى « لأن صفة الربوبية – بما فيها من معانى التربية والإنعام والتفضل وهى آثار لا تنقطع دنيا وأخرى – أنسب وفيها اعتراف بالربوبية ولجوء إلى مصدر الخير أملا فى الإجابة »[٢].

موسى – عليه السلام – يأنس ببدء المناجاة بالربوبية فى مقام خطير تأمله فى سورة (طه): (إذهب إلى فرعون إنه طغى) (٢٤) وهو مجاوزة الحد فى الظلم والطغيان، ومثل هذا الموقف تحتاج مواجهته إلى عدة وعتاد، فكانت مناجاته مبسوطة بطلب شرح الصدر وتيسير الأمر وحل عقدة لسانه وجعل وزير له من أهله...، وترى فيها تسبيحا كثيرا، وذكرا كثيرا، أنسا وقربا وطمأنينة وثباتا وتوفيقا وتأييدا فى مواجهة ملك ظالم، وفرعون طاغية.

وتأمله فى سورة الشعراء ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ وفيها جاء (قوم) بدلاً من (القوم الظالمين) دلالة على أنهم صاروا

(١) ينظر / دلائل الإعجاز/ص ٣٢٧، وخصائص التراكيب /ص ٩٧، والحركة الأسلوبية/د/ عبد الرازق محمد فضل / ص١٧ مطبعة التركى / طنطا.

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم /د/صباح دراز / ص٦٥.

علما فى الظلم والجبروت، حتى صار توضيح القوم الظالمين وبيانه (قوم فرعون) وناسب التعبير بالظلم إعلان خوفه من تكذيبهم، لأن التكذيب شأن الظالمين ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ وأسلوب التوكيد مبين عن تملك الخوف من تكذيبهم قلبه، وسيطرته على وجدانه، و أوثر المصدر المؤول دون أن يقال: إنى أخاف تكذيبهم، لإفادته خوفه من كل ما يطلق عليه التكذيب حتى ولو كان ضعيفا، حرصا على دعوته، وتبليغ رسالته، وتوافق مع هذا ، التعبير بـ (يضيق صدرى) إذ التكذيب والجدال بالباطل يؤثر سلبا فيمن يواجه به، فينفعل ويغضب، ويتسبب عن ذلك كله عدم انطلاق اللسان وبيانه عما يراد منه، فقال: (ولا ينطلق لسانى) ثم طلب من ربه العون بأخيه هارون، وهو ترتيب منطقى، جعل فيه الأول كالسبب فى الثانى، والأول والثانى سبب فى الثالث.

وتأمله فى سورة القصص: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ القصص: ٣٢ والفسق: الخروج عن الطاعة، تقول العرب: فسقت الرطبة عن قشرها: إذا خرجت [(١)]، وهذا الخروج الفاسق جعل موسى – عليه السلام – يبدأ مناجاته بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ القصص: ٣٣ وذلك لأن الفاسق الخارج عن الطاعة، سيفكر فى الانتقام والبحث عن ذريعة يتذرع بها لفعلته الشنعاء، فبدأ موسى بما سيفكر فيه فرعون للتخلص منه، ثم طلب من ربه إرسال هارون معه ليعينه ويصدقه قائلا: (هو أفصح منى لسانا) دون ذكر شرح الصدر أو الخوف من ضيقه، لأن همه هنا متجه إلى تبليغ الرسالة حتى وإن أصابه مكروه ومن ثم صرح بفصاحة هارون عليهما السلام، وكانت مناجاته هنا سريعة قصيرة مناسبة للمقام.

ومما هو من صميم الدرس البلاغى مجئ كلمة اللسان على هذا الترتيب فى المواضع الثلاثة، ففى سورة (طه) سأل ربه أن تحل عقدة لسانه، وفى سورة (الشعراء) خاف أن لا ينطلق لسانه، وفى (القصص) طلب العون بأخيه لكونه أفصح منه لسانا، وهذا يجلى أهمية اللسان ودوره فى التبليغ عن الله تعالى، وضرورة تقويمه وتثقيفه وتدريبه والصبر على ذلك لتجلية حقيقة الإسلام وإبراز تجلياته حتى تكون الدعوة مورداً عذبا تجرى فى القلوب وتغذو العقول، ويتوجه الناس جميعا بذلك إلى الله الخالق العظيم، وهذا ضرب من الجهاد أهمل، ورغب

(١) مقاييس اللغة /٤/ص٥٠٢ / مادة / فسق.

القوم عنه، وما كان ينبغى أن يتخلف أحد عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وقد كانت الدعوة وظيفته وهى وظيفة أمته من بعده.

ثالثاً : **اللسان**: **ومقام التخويف والترهيب**:

جاءت كلمة اللسان بمعناها الحقيقى فى البيان القرآنى فى مقام التخويف والترهيب فى موضعين من سورة (النور) وجاءت فيهما جمعا مضافا إلى ضمير المخاطبين مرة، ومرة إلى ضمير الغائبين، وسره فى الأول توجه الخطاب إلى من خاض فى حادثة (الإفك) من المؤمنين، ومن ثم جمع اللسان وأضيف إلى ضمير الجمع للمخاطبين تخويفا وترهيبا وتربية وتوجيها، والخطاب فى مثله أعلى وأنسب، وفيه إلماع بالفضل والرحمة. وفى الثانى أضيف إلى ضمير الغائبين مع الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فحقت عليهم بذلك اللعنة فى الدنيا والآخرة تخويفا وترهيبا ولعنة وغضبا ويوافقه ضمير الغائبين سخطا وطردا.

البيان والتفصيل:

الموقع الأول: **فى سياق سورة** (**النور**)

جاء فى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ النور: ١٥

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تتوجه السورة إلى تقرير معنى عام تلتف حوله جميع مقاطعها، وهو التأكيد على شمول علمه تعالى، وتمام قدرته، وعظيم حكمته، وتأكيد الشرف للنبى –ﷺ– ومن اختاره لصحبته، ونزاهة وطهارة أم المؤمنين عائشة التى مات عنها وهو راضٍ، وماتت هى رضي الله عنها صالة محسنة [١].

وكان المحور الرئيس من محاور هذا المقصود ومكوناته « التربية التى تشتد فى وسائلها إلى درجة الحدود، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة، التى تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة فى تضاعيف الكون وثنايا الحياة »[٢]

(١) ينظر / نظم الدرر /٥/ص ٢٢٩.

(٢) فى ظلال القرآن /٤/ ص ٢٤٨٦.

والمدقق لآيات السورة ومعانيها المكونة لمعناها الكلى يقف على ألوان من الآداب الإسلامية التى يجب أن تتخلق بها البيوت المسلمة، وتتأدب بها المجتمعات المؤمنة.

والآية ترشد إلى أدب عظيم من آداب الإسلام، وتحذر من تلقف الأخبار السيئة وأخذها عن بعض وإشاعتها بالأفواه بدون علم ويقين، وتتجه إلى التخويف من الوقوع فى أعراض المسلمين، لأن الله يسمع ويرى، وهى بهذا تتسق مع السياق الذى يقرر مجموعة من الآداب تحقق كلها مقصود السورة وتلتف حوله.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

تلتحم الآية مع ما قبلها ومع ما بعدها فى تقرير حقيقة ما أشيع حول السيدة الشريفة أم المؤمنين –رضي الله عنها– وتعليم المجتمع المسلم كيفية مواجهة الإشاعات ودحض الافتراءات، وذلك أمر لا غنى عنه لكل مجتمع فى أى عصر ومصر، وهى بذلك حلقة فى حلقات متماسكة متواصلة المعنى.

التحليل البلاغى:

سبقت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ولولا: تفيد امتناع مسهم فيما أفاضوا فيه بعذاب عظيم، لوجود فضل الله عليهم ورحمته، فبفضل الله تعالى وبرحمته نجت الأمة من فعلتها التى تستحق بها العذاب العظيم لما سببوه من أذية لرسول الله –ﷺ– وزوجه وأبى بكر الصديق وصفوان الذى لا يعلم عنه إلا الخير، ويظهر فى التعبير بالموصول فى قوله: (فيما أفضتم فيه) التهويل مما كان منهم، واستهجان ذكره والتصريح به، مما يفيد خطورة العقوبة عليه، وتؤازره الاستعارة فى (أفاض) حيث استعير إفاضة الماء لكثرة الحديث وتداوله، واشتق من الإفاضة أفاض بمعنى أكثر على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية، وبنيت الاستعارة على صيغة الماضى لإفادة تحقق الخوض بكثرة ووقوعه، ووصف (عذاب) بـ (عظيم) ليفيد قوته وشدته وهوله فوق ما يتصوره الخائضون، وهذا ما يجعل المدقق فى نظم الآية يقف على تآزره بكل مشتملاته على بيان عظيم جرمهم، وهول عاقبة إفكهم، ومن جانب آخر يؤكد عظيم فضل الله تعالى على الأمة، وسعة رحمته بها.

ثم يظهر أثر اللسان الخطر فى هذه الحادثة، ويكشف النظم عن دوره الكبير فى الترويج لها، وذلك فى قوله: (إذ تلقونه بألسنتكم...) وإذ: ظرف لـ (مسكم) أو (لأفضتم) [1] فى الآية السابقة، ولما كان النظم يتجه إلى تخويفهم من عاقبة هذا الخوض وترهيبهم من الولوج فى مثله، فإنى أراها ظرفا لمسكم، لكونه يبين وقت حلول العذاب و زمان تعجيله، أى: مسكم حين (تلقونه بألسنتكم...) وجمال التعبير بالظرف ونكتته الإيجاز الموفى بالغرض وبتمام المعنى، وتبين مادة الفعل (تلقونه) حرصهم على الإقبال على هذا الخوض المشين، وإجهاد النفس فى تلقيه بالقبول وإشاعته، تقول: رجل لقىٌّ ومَلْقِيٌّ ومُلَقَىًّ ولقاء يكون ذلك فى الخير والشر، وهو فى الشر أكثر، يقول الليث: رجل شقى لقى لا يزال يلقى شرا، وهو إتباع له [2] فالمادة تشعر بمدى الاهتمام المتوجه والمتعمد لتلقف هذا الإفك وإشاعته، بل ترسم العبارة صورة معبرة عن هذا المعنى.

ترى فيها حديث الإفك فى صورة شخص يرحب به، وصورة المروجين له بمن يتهيأ لذلك الشخص، ويستعد له بلسانه موضع يده على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية، والتلقى للأخبار يكون بالأسماع وإنما عبر بألسنتكم دلالة على الحرص المسيطر لأخده ونشره والتكلم به [3].

وتفيد الصورة مع ما سبق أنه مجرد قول باللسان، ويأبى النظم إلا تأكيده وتقريره بقوله: (وتقولون بأفواهكم) فليست له حقيقة فى الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان بالأفواه التى لم تستعمل فى البيان القرآنى إلا فى كل موضع علق الله تعالى حكم القول بالفم إلا للإشارة إلى الكذب، والتنبيه على أن الاعتقاد لا يطابقه[4] ويشارك جرسها فى تفخيم القول وتفظيعه، وتشعرك مدتها وهاؤها بتفاهة الانشغال بما لا فائدة من ورائه إلا ظلم أكرم بيت وأشرفه على مر التاريخ، وزيد المعنى قوة بقوله: (ما ليس لكم به علم) فتنكير (علم) يفيد التحقير والتقليل،

---

(١) الكشاف /٣ / ص٢٧٧.

(٢) لسان العرب / مادة / لقا.

(٣) ينظر / التحرير والتنوير /٩/ ص ١٧٨.

(٤) المفردات / مادة / فوه / ص ٥٨٤.

وتسليط النفى عليه يكشف كذبهم فى هذا الخوض الآفك، وانتفاء وجود حقيقة له بوجه من الوجوه.

ويجلى قوله: (وتحسبونه هينا) استصغارهم لهذا الإفك الذي تلقونه بالألسن، وقالوه بالأفواه، مع أنه قذف عرض الرسول العظيم، وتلويث بيت صديقه، واتهام لأم المؤمنين وصحابي جليل مجاهد، والنظم القرآني يعطيك جوانب من المعنى كلما نظرته وتأملته من أي جانب أو زاوية، يشعرك بالاستهانة بهم لاستصغارهم واستهانتهم بالإفك، إذْ التعبير بالحسبان دون الظن يدل على ضعف عقولهم، ويكفى الإنسان خزيا أن يتهم فى عقله، فالظن يكون فيما هو من المعلوم المأخوذ بالدليل والعلم، وضعف علم العالم ظن، وضعف عقل العاقل حسبان، لأنه يكون فيما هو من نوع ما فطر الإنسان عليه، واستقر عادة له [١]، حيث إنهم لو تعقلوا وتدبروا لأدركوا أن من اتهم بذلك أعلى وأطهر من أن يقع فيه.

أما عند الله فقد عبر عنه بقوله تعالى: (وهو عند الله عظيم) والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام، وخالف النظم الجملة الفعلية المقام عليها النظم فى: تلقونه .. تقولون .. تحسبونه.. وهى صيغ مضارعة تصور الحدث وتنقله فى صورة متجددة متكررة منهم، أما الاسمية فهى تقرر أن ما كان منهم أمرا عظيما لا يقادر قدره فى الوزر والعذاب المترتب عليه، واصطفى الاسم الكريم (الله) زيادة تخويف وترهيب وتربية على الخشية والتقوى، فبذكره فى مثل هذا المقام تجفل له القلوب، وتتحرج لأجله الألسنة من التحدث به، والمشاركة فيه خوفا ورهبة[٢].

نظم الآية يوقفنا على أمور ثلاثة: أولها: تلقيه بالألسنة أى بالسؤال عنه. ثانيها: التكلم به. ثالثها: استصغاره وهو عند الله عظيم[٣]، والمتأمل يجد النظم ترقى من الأدنى إلى الأعلى، وهو منهج بلاغى أصيل، فاستقبال الخبر بالتساؤل عنه أخف من التواصل معه بنقله إلى الغير، وهما أقل من وطأة الاستهانة

(١) نظم الدرر / ٦/ص ٩٠.

(٢) ينظر / تحليل نظم الآيتين / مع النظم القرآنى فى سورة النور / د/ الشحات أبو ستيت / صـ٥٥-٦١ .

(٣) التسهيل لعلم التنزيل / الغرناطى الأندلسى / ٣/ص ٦٢.

بأعراض الناس، واستصغار هتكها، والنظم يحذر من الوقوع فى ذلك، ويخوف من دور اللسان إذ لم يكف فى تدمير البيوت والاعتداء على الأعراض.

الموقع الثانى: فى سياق سورة (النور) أيضا.

أتت كلمة (ألسنتهم) فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ النور: ٢٤

مقصود السورة وعلاقة الآية به :

تؤكد الآية وعيد الله تعالى لمن قذف المحصنات الغافلات المتصفات بالعفة والإيمان بشهادة أيديهم وألسنتهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، ومن ثم ينالهم جزاؤهم العدل، وهذا المشهد يصور جانبا من كمال قدرته تعالى الذى أنطق هذه الأعضاء، ومن قدر على ذلك لا يعجزه أن يعذبهم بما يستحقون، وبدلالة الآية على تمام القدرة وكما لها تلتقى الآية مع مقصود السورة وتتواصل معه.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

تتناسق الآية مع سياقها الذى يؤكد تهديد الله تعالى ووعيده للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنون بالطرد من رحمته فى الدنيا والآخرة، وأنهم سيعذبون عذابا مهولا عظيما، وذلك يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وهى بهذا المشهد تتلاحم مع سياقها وترتبط به.

التحليل البلاغى:

تجدر الإشارة إلى سبق الآية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ وقد أقيم نظمها على أسلوب التوكيد بـ (إن) واسمية الجملة ترهيبا من الوقوع فى مثل هذا الذنب الكبير المحقق ما توعد به الواقع فيه من اللعن والعذاب، وعبر بالموصول لتعلق الوعيد بصلته

التى لا يتعرف إلا بها، وفى قوله: (يرمون المحصنات..) استعار لطيفة، استعير الرمى للصق الزنا بهن، واشتق منه (يرمى) بمعنى يلصق ويشيع، على سبيل الاستعارة التبعية، وهى تجسم جريمتهم وتقبح فعلتهم فى صورة رمى وقذف يؤذى العفيفات الطاهرات.

وزيدت الصورة بشاعة بوصفهن بثلاثة أوصاف: المحصنات وهن العفيفات الطاهرات وهو وصف يقرر عفتهن لجعلهن أنفسهن فى حصن لا يصل إليهن ما يقدح عفتهن، وقبيح أن يتعرض لهن بالاتهام وإلصاق الفاحشة . الغافلات: وهن السليمات الصدور، فلم يخطر ببالهن يوما من المعصية ولا مقدماتها شيء، ومن المشين أن يرمون بالتهمة وهن لا يدرين بما يرمون به، ولم يحتطن لمثله. المؤمنات: والتعبير به دون قولنا: اللاتى آمن دلالة على قوة الإيمان وتمكنه من قلوبهن حتى صار الإيمان وصفا لهن، والمدقق يضع يده على ترقى النظم بالأوصاف من الأدنى إلى الأعلى، فأدناها: طهارة النفس (المحصنات) وأوسطها: سلامة الصدر بحيث لا يخطر ببالهن شيء من المعصية (الغافلات) وأرقاها: الإيمان الحامل لهن على العفة والغفلة،ومثلهن يجب أن لا يؤذين، وفيه من التشنيع والذم لمن مسهن بسوء ما فيه.

ومن هنا عبر عما يستحق من العذاب بقوله: (لعنوا فى الدنيا والآخرة) وصيغة البناء لغير فاعله تدل على أمرين: التأكيد على أن المحذور هو اللعن ذاته وتقريره دون النظر إلى فاعله. التنبيه على أنهم ملعونون من كل من يتأتى منه اللعن، وزيد اللعن قوة وضخامة بكونه لا يحده زمان ولا مكان، وإنما هو واقع عليهم (فى الدنيا والآخرة) وفخم الترهيب من الوقوع فى هذه الجريمة بـ(ولهم عذاب أليم) وقدم الجار والمجرور تأكيداً وتعجيلا بمواجهتم بما أعدلهم من العذاب الموصوف بما يدل على هو له وفظاعته.

ثم جاء نظم الآية التى جاء اللسان فيها (يوم تشهد عليهم ألسنتهم...) ليرسم مشهدا عظيما مؤثرا، ترى فيه ألسنة وأيد و أرجلاً تنطق بما اقترفه أصحابها من الإثم، وخصت الألسنة بالتقديم لأنها التى نطقت فى الدنيا بالقذف والرمى به، ثم ثنى بالأيدى لأنها التى كانت تؤكد القول والقذف بالإشارة إلى المقذوفات، ثم ثلث بالأرجل لأنها التى كانت تسعى لنشر الجريمة بين الناس، فالاقتصار عليها هنا

لكونها ذات اتصال بما يتناوله السياق من قذف المحصنات وعقوبته، إذ هناك شواهد أخرى[1]، وفى المشهد تهديد لهم وترهيب من هذا الموقف الفاضح لأمرهم، الكاشف لعوراتهم فإذا أنكر عضو – ولن يستطيع – كذبه آخر، فهى اتهامات يوجهها بعضهم إلى بعض فضحا وذما وتشنيعا، ليتقابل مع مشهد اتهامهم للمؤمنات، هذا فى الدنيا وذاك فى الآخرة وقدم (عليهم) على الفاعل مسارعة بلطمهم على وجوههم بما يسوء، وبيانا لكونها شهادة فضح وتقبيح وإقامة للحجة مع التشويق إلى المؤخر.

ويدل الموصول فى قوله: (بما كانوا يعملون) على العموم، فهى شهادة بكل ما قدموا من قذف وغيره، تحذيرا وتخويفا من عاقبة هذا العمل السئ الذى سيجلب لهم اللعن والشهادة الشاملة له ولغيره، وهذا تفنن فى التعبير، فإن كان النظم فصل فى الآية السابقة، فقد أجمل هنا، ليقف المتلقى على الكائن هناك من أحوال وأهوال لايحاط بها.

ختام:

كشف نظم الآيتين عن خطر اللسان فى قضية اتهام الناس ورميهم فى أعراضهم، وكان خطره قائما فى الدنيا وحاضرا فى الآخرة، ففى الدنيا يهتك الأعراض وينشر ذلك بين الناس فتعم البلوى وتنتشر الفاحشة، وفى الآخرة بقيامه بالشهادة على صاحبه بما كان منه عامة فى الدنيا، وكأنها إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ليكون ذلك عذابا فوق العذاب، ووجيعة تعلو الوجيعة، وخصت سورة (النور) بالموضعين لكونها تجلى كثيرا من الآداب التى ترقى بالبيت المسلم والمجتمع المسلم رقى عفة وطهارة. والنظم فى الموضعين يحذر من التعرض لأعراض الناس ويخوف من عاقبة من أطلق لسانه يخوض فيها، وكانت السورة جديرة بالتفرد بقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ النور: ٣٥ وجديرة بالتسمية بـ(النور) من بين سور الذكر الحكيم.

رابعاً : **اللسان**: **ومقام المن والاعتبار**:

(١) ينظر/ التحرير والتنوير /٩/صـ١٩١.

وردت كلمة اللسان بمعناها الحقيقى فى البيان الكريم فى موضعين فى مقام المن والاعتبار بهذه النعمة التى بها يفصح كل إنسان عما يختلج فى صدره من مشاعر، ويعتمل فى عقله من أفكار، وقد من الله بها على عباده: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ وهى كما ترى من آثار رحمته تعالى،وخصت بالذكر بعد نعمتى تعليم القرآن، ثم الخلق والإيجاد، لما لها من أهمية فى حياة الناس لا تستقيم الحياة بدونها، وكل من عايش فاقدها المحروم منها، يدرك قيمتها، ويقف على سر الامتنان بآلتها، وقد جاءت كلمة اللسان فى أحد الموضعين جمعا مضافا إلى ضمير المخاطبين، ومفردة فى الموضع الآخر، وهى فى كليهما متسقة مع سياقها.

البيان والتفصيل:

الموقع الأول: **فى سياق سورة (الروم)**

وفيها جاء قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ الروم: ٢٢

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تبصر السورة – كشأن القرآن المكى – المتلقى بوحدانية الله تعالى، وطلاقة القدرة، وسعة الرحمة، وإحاطة العلم، وصدق البعث وما بعده من أحوال الآخرة، وجاءت هذه الآية برهانا على هذه الوحدانية وتلك القدرة، حيث إنه تعالى خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان ولا يقدر على ذلك إلا إله واحد قادر، وهذه العلاقة التى تجمع بين المقصود والمعنى الذى تهدف الآية إلى تقريره واضحة جلية.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

فى سياق آيات تتناول دلائل الوحدانية، ومظاهر القدرة جاءت هذه الآية لتقرر وجهاً من هذه البراهين المبثوثة فى هذا الكون بسمائه، وأرضه، وناسه، فى تناسق بديع، وتواصل مقنع، وتآزر ممتع.

التحليل البلاغى:

يجتمع نظم الآية على إظهار جانب من خلقه تعالى وفضله على عباده، وتجلية مظهر القدرة فى اختلاف الألسنة لغة ولهجة وطبقة صوت، ومن اللافت فى بناء الآية مجيئها ضمن آيات سبقتها وأخرى لحقتها تقدم فيها جميعا الجار والمجرور (ومن آياته) ومن المقرر الذى لا يختلف عليه اثنان أنه ما تقدمت آية أو كلمة أو حرف فى البيان الحكيم إلا لحكمة إلهية، وأسرار بلاغية، ودواع سياقية ومعنوية تطلبه وتقتضيه، وهذا دال على دقة بالغة معجزة، ومراعاة كيفيات واعتبارات ومقامات أحوال وسياقات تقطع ببلاغة البيان القرآني وعلوها (١).

وتقدم المسند على المسند إليه يفيد إثارة التأمل ولفت النظر، وأخذ العبرة وتوجيه المتلقى وطاقاته العقلية والنفسية إلى استبصار مظاهر قدرة ربه وآثارها المبثوثة فى الكون والحياة وفى نفسه وفيمن حوله، إنه يراها فى خلق السموات، كما يراها تحت قدميه فى خلق الأرض وما يتصل بكل منهما، ثم يتدبرها فى الألوان والأشكال فى كل من يعايشه أو يقابله هنا وهناك، فيقف من وراء ذلك على عظمة الله وجلاله وسعة سلطانه ورحمته وإحسانه، فيجرد إليه القلب حبا وتواضعا وانكسارا، ويوجه إليه اللسان ذكراً وثناء، ويخضع له الجوارح عبادة وطاعة، ومن نكات التقديم –هنا– تشويق المتلقى إلى معرفة المسند إليه المؤخر، وإثارة حواسه وذهنه ليتأمل ويتدبر، فيقر المعنى فى النفس، وتقر هى به وتسكن. (٢)

وجاء المسند إليه المؤخر مصدرا (خَلق... واختلاف...) لاتساقه مع الحال الثابتة المستمرة لخلق السموات والأرض واختلاف الأسنة والألوان، تلك الحال الدالة على طلاقة القدرة، وقد جمع (السموات) للدلالة على أنها عوالم كثيرة متعددة ، وتعددها ظاهر بما يشاهد من كواكب وطرق سيرها وحركتها سرعة وبطئا ، وفى الجمع – أيضاً – دلالة على شرفها ، ولذلك قدمت على الأرض فى الغالب من آيات الذكر الحكيم ، وآياتها دالة على وحدانية الله وقدرته أعظم

(١) ينظر / ملاك التأويل / أحمد بن الزبير الغرناطى / ص ١٤٥، ومقدمة أسرار التكرار للكرمانى للمحقق / ص١٠.

(٢) ينظر / علم المعانى / د/ صباح عبيد دراز / ص ١٩١.

وأظهر منها فى الأرض التى ما جاءت إلا مفردة فى البيان القرآنى ، لثقل جمعها على اللسان بخلاف السموات(١). وللطباق بينهما دور فى توضيح المعنى وتأكيده وإثارة التعجب من ذلك الإبداع المتسق فى استمراريته على حال ثابتة مع اختلاف المخلوقات بين مرتفعة محكمة، ومبسوطة متقنة، وترى أثر التضاد فيما يلمح بين ما يدرك بالآذان من اختلاف اللغات واللهجات، وما يبصر بالأعين (ألوانكم) وهذا من جمال النظم وبلاغته فى الكشف عن آثار قدرته تعالى.

وآية (اختلاف ألسنتكم وألوانكم) من أحوال الأنفس التى سبق الحديث عن بعضها فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ولم تذكر معها فى سياق واحد لسببين: الأول: الإشارة إلى كونها آية جديرة بالاستقلال، إذ لو ذكرت هناك لظن البعض أنها داخلة ضمن آية خلق الأزواج من أنفس الذكور وتتمة لها. الثانى : اللفت إلى ما يمكن أن يؤثر فى اختلاف الأصوات وطبقاتها والألوان ودرجاتها من اختلاف البيئة والأجواء، والإنسان – كما يقولون – ابن بيئته، وسر تقديم (ألسنتكم) على (ألوانكم) تأكيد أهمية الألسنة فى حياة الناس ، وتعظيم شأنها ، ولكونها أعظم أثرا، والنظم بجمعه بين هاتين الآتين متناسق ومترابط.

وكما تناسق النظم فى مستهل الآيات تناسق – أيضا– فى ختامها، فقد اتفقت فى التأكيد بـ (إن) المفيدة تقرير عظمة الآيات ودلالتها على تميزها وقوة تأثيرها، وعلو شأنها بين براهين القدرة والحكمة، (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن فى ذلك لآيات للعالمين) (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)

ومما تقبض عليه اليد فى نظمها اتفاق ثلاثة منها فى التعبير بـ(قوم) للدلالة على أن الذين يفيدون من هذه الآيات الثلاثة هم المتحفزون لها، المستعدون لأخذ العبرة منها، المتأهبون القائمون لتدبر حكمتها ودراسة دلالتها، أما مجئ

(١) ينظر/ نظم الدرر /٢/صـ٥٧٩ والاتقان فى علوم القرآن /١/صـ١٩٢، دور فى المعانى /٧/صـ٨١،٨٠ ، والإعجاز البلاغى فى الآيات الكونية (السموات والأرض) د/ السيد سلام / مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية / عدد /٢٤سنة ٢٠٠٦م .

(العالمين) دون (قوم) فى ختام آية خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان، فلأن العالمين – بكسر اللام – هم أهل للإفادة لما تأصل فيهم من جدية وقيام للأمر، وأما بفتح اللام، فلأنها من الآيات الواضحات المشهودات للجميع، وفيها تعريض بمن لم ينتفع بهذه الآيات، وتشنيع عليهم لانتفاء الفهم عنهم المؤدى إلى انتفاء الاعتبار بآيات واضحة الدلالة مشهودة مشهورة.

جاءت كلمة الألسنة فى نظم الآية دليلا على قدرة الله المبهرة التى تراها فى اختلاف اللغات، وتباين اللهجات، وتمايز الأصوات وطبقاتها، فصار اللسان فى هذا المقام هاديا إلى الحق، وموجها إلى الاعتراف بمنه تعالى وفضله.

الموقع الثانى: فى سياق سورة (البلد)

جاء هذا الموضع فى قوله تعالى:﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ البلد: ٨ - ١٠

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تقصد السورة إلى الدلالة على نفى القدرة عن الإنسان، وإثباتها للخالق العظيم، بذكر المخلص منها، الموصل إلى السعادة فى الآخرة، وهو ما يرشد إليه اسمها (البلد) فإن من تأمل أمان أهل الحرم وما هم فيه من الرزق والخير على قلة الرزق ببلدهم – وما فيه غيرهم ممن هم أكثر منهم وأقوى – من الخوف والجوع [1]، وفى هذا تنويه بمكانة الكعبة وشرف الحبيب ﷺ.

وفى هذا الاتجاه تتسق الآيات هذه لما تهدف إليه من بيان فضل الله تعالى على الإنسان، فقد وهب له من الحواس: العينين، واللسان، والشفتين بصفاتها الخلقية، وسماتها التكوينية مما لا يقدر عليه إلا من خلق وسوى، ثم أعطاه تعالى ما به يقف على الهدى والضلال، وأودع فيه ما به يدرك به الخير والشر، وهذه النعم الحسية منها والمعنوية تكشف جانبا من قدرة الله الشاملة ورحمته الواسعة.

(١) نظم الدرر /٨/ ص ٤٣ بتصرف.

وجه ارتباة الآية بسياقها:

ذكرت كلمة اللسان فى سياق آيات تظهر ما تفضل الله تعالى على عباده من الآلاء والإحسان، وهى نعم تقابل ما قد يداخله من غرور وبطر وكبر لاعتقاده إمكانية الاستغناء عن الله تعالى، وقد عبر عن ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ فينخدع بما وهب، ويظن امتلاك القوة والقدرة، فتجابهه هذه الآيات بما هو مغمور فيه من نعم ربه الدالة على عظمة الله وجلاله، مما يقف أمامه الإنسان صغيرا ذليلا خاضعا مستسلما، وهذا أحد وجوه ترابط الآيات وتلاحم سياقها.

التحليل البلاغى:

أقيم نظم الآيات على أسلوب الاستفهام وصيغته الهمزة الداخلة على مضارع منفى بـ (لم) فى قوله: (ألم نجعل له عينين...) وغرضه البلاغى التقرير، وهو من حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه[١]، ليسجل اعترافه بما يتقلب فيه من نعم الله تعالى التى يراها فى نفسه قبل أن يراها فى الكون حوله، ويتميز أسلوب الاستفهام عن غيره بتهييج العواطف والوجدان، وإثارة العقل، والدعوة إلى المشاركة، وحمل النفوس على التوقد، والقلوب على اليقظة ويجلى المعانى فى معارض مثيرة وألوان زاهية [٢]، تنعكس على قلب المتلقى فيعتبر ويتعظ ويقر ويعترف.

وقدم (له) العائد على الإنسان السابق ذكره فى السياق لأهميته، فهو المتحدث عنه وعن غروره بما يرفل فيه من نعم هى من الله وحده، وإنما خص (عينين) وقدمهما على غيرهما، لما لهما من أثر عظيم يلمسه كل الناس، فبهما تكون الرؤيا ومشاهدة آثار قدرته تعالى، ثم جئ باللسان الذى يفصح عما فى ضمير المتكلم، وتقام على ذلك جوانب مهمة من حياة الناس العامة منها والخاصة و بالشفتين يكون ستر الفم الذى يبدو قبيحا بدونهما، ويساعدان اللسان على النطق الفصيح السليم وعلى الأكل والشرب.

---

(١) ينظر / المطول ص ٢٣٦ / المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) ينظر / التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم / د/ عبد العظيم المطعنى / ١/ص٣.

وعبر بالمضارع (نجعل) لدلالته على تجدد نعمائه تعالى على عباده، واستمرار أداء هذه الجوارح وظائفها التى خلقت لها، وبقائها على حالها وأدائها بحفظه تعالى ورعايته.

وفى جانب الهداية جئ بصيغة الماضى (هدى) تحقيقا لكونه غريزة ثابتة وخصائصها دائمة، وطبيعة خلقت لا تتحول ولا تتبدل، بل هى غالبة على صاحبها، قائدة إلى مضاره، أو موجهة إلى مساره (١)، وجمع فى النظم بين نعم حسية مؤثرة، ونعم معنوية ميسرة، ليؤدى الإنسان مهمته وتستقيم طريقته، والمثير هو تأثير النعم الحسية فى المعنوية، فالهداية تتأثر وترقى برؤية العينين لآيات اله المبثوثة فى جنبات الكون العظيم، واللسان والشفتان أداة البيان وغيره من وظائفهما، وقد وقفنا فى الموضع السابق على دلالة اختلاف اللغات وتباين اللهجات على قدرة الله تعالى وسعة رحمته، وجمع بينها وبين خلق السموات والأرض فى سياق واحد، فكلا هما من آيات الله تعالى، وجميعها دالة على ضعف الإنسان وهَوَانِه أمام جلال الخالق القادر عزفى علاه.

ختام

جاء اللسان فى الموضعين فى مقام المن والاعتبار، وشأن البيان القرآنى فى تناوله لقضية الخلق – ومنها نعمة اللسان – الاتجاه بها لتقرير ألوهيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته، وإرشاد الناس إلى ما فيها من دلائل وبراهين تدل الناس على الحق والهدى، وتبصيرهم بما تفضل الله عليهم من نعم يتقلبون فيها آناء الليل وأطراف النهار، توجب شكره تعالى والثناء عليه، والنظم فى الموضعين يعتمد على أسلوب خبرى مؤكد – فى الأول– وأسلوب استفهامى مقرر فى الثانى.

خامساً : اللسان: ومقام التربية والتوجيه:

من الأهداف العظمى للبيان القرآنى تربية المؤمنين وتوجيههم إلى الحق والهدى والصواب، وأعظم هذا المقام وأشرفه ما كان منه إلى النبى –ﷺ– وقد جاءت فيه كلمة اللسان فى موضع واحد مفردة مضافة إلى ضميره ﷺ.

البيان والتفصيل:

فى سياق سورة (القيامة)

(١) ينظر / نظم الدرر / ٨ / ص ٤٣٠.

وفيها يقول الله جل جلاله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ القيامة: ١٦

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تقصد سورة القيامة إلى إثبات البعث والتذكير بيوم القيامة وأشراطها، وما فيها من جزاء وحساب، وتباين ما فيه أهل السعادة، وما فيه أهل الشقاء، وفيها تذكير بالموت وأنه أول منازل الآخرة، ولاسمها دلالة قوية على ذلك، فهو مفتاح معناها، ودليل الوقوف على مقصدها وتوجهها، وترجمة عن موضوعها(١)

وللآية وجه ارتباط بهذا المقصد، لدلالتها على شمول علمه تعالى وإحاطته بخلقه، إذ تكفل سبحانه بجمع القرآن فى صدر نبيه، وببيانه وتوضيحه، ونهى نبيه بناء على هذا عن تحريك لسانه تعجلا ورغبة فى حفظه، ولا يقدر على تحقيق ذلك إلا إله قوى قادر، ضمن لنا بذلك حفظ المنهج المنجى من أهوال القيامة والمسعد لأهله فيها.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

يذكر سياق السورة بيوم القيامة وأشراطها وأحوالها، وجاءت هذه الآية ضمن قوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ والعلاقة بين الآية وحديث السورة عن يوم القيامة من الأمور التى شغلت العلماء قديما حين طعن بعض الملحدين فى فكرة التناسب فى القرآن فى بعض الآيات التى منها هذه الآية (لا تحرك...) ومما ذكره الخطابى فى ذلك أن فيها عارضاً من حال دعت الحاجة إلى ذكره كقولك للرجل وأنت تحدثه فيشتغل عنك بما يظنه مهما: أقبل على ونحوه ثم تصل حديثك ولا تكون بذلك خارجا عن الكلام بل مستوصلاله، وكان رسول –ﷺ– أميا لا يقرأ وكان إذا نزل القرآن يحرك به لسانه مخافة أن يتفلت منه كما روى عن ابن عباس فقيل له تفهم ما يوحى

(١) يقول الزركشى: « ينبغى النظر فى وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعى فى الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى = =الشيء من خَلْقٍ أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرأى للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشرف فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز ، البرهان فى علوم القرآن /١/ص ٢٧٠.

إليك ولا تتقلبه بلسانك فإنا نجمعه لك ونحفظه عليك[1]، وقد جمعه سيد قطب فى قوله: « هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة فى السورة ذاتها»[2]، ويرى الطاهر بن عاشور أن الآيات نزلت اعتراضا فى ثنايا السورة وبين آياتها توجيها للنبى وتعليما له فى شأن هذا القرآن « فلما نزل هذا الوحى فى أثناء نزول السورة للغرض الذى نزل فيه ولم يكن سورة مستقلة كان ملحقا بالسورة وواقعا بين الآى التى نزل بها »[3]، وإذا كان الأول مقبولاً فإن الأخير يعطى ناظره انطباعا بانقطاع الآيات القرآنية عن بعضها، وعدم تناسق معانيها، ولا يوجد مثل ذلك فى البيان البشرى العالى، فكيف يقال فى البيان القرآنى ؟!!.

وإذا تأملنا السياق الذى جاءت فيه الآيات نجده سياقين: عام: وهو سياق السورة كلها الذى يتحدث عن يوم القيامة وبعض أحواله ومشاهده. وخاص: وهو مشهد مزلزل يقرر إخبار الإنسان بما قدم من أعماله وبما أخر منها، وأن ما يخبر به لن يكون خفيا عليه لأنه سيكشف له عن بصيرته، قال تعالى: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ ولما كان هذا الإخبار عظيما مهولا بدئ النظم بالفعل (ينبأ) ومادة الفعل وبناؤه لغير فاعله، يدلان على هوله وجلاله، وسرعة حدوثه وتوفير الاهتمام على الحدث – كشف الأسرار – لخطورته لا من قام به، وهذا موقف خص لهو له وفخامته.

ووجوه تلاقى الآيات مع هذين السياقين عديدة، نذكر منها:

أولا: تكفله تعالى بجمع القرآن وحفظه وبيانه وتفسيره، وفى ذلك تطمين للمتلقى بحفظ منهج سعادته فى الدنيا وفى يوم القيامة، وبث الثقة فى أعماقه، مما يدعوه إلى الإقبال عليه، والاستمساك به.

(١) ينظر بيان إعجاز القرآن / للخطابى / ص ٥١، ٥٢، وأسرار الفصل والوصل / د/ صباح دراز / ص ١٥.
(٢) فى ظلال القرآن / ٦ / ص ٣٧٦٧.
(٣) التحرير والتنوير / ١٤ / ص ٣٤٩.

ثانيا: يدل جمع القرآن وحفظه فى صدر النبى وهو الأمى دون حاجة إلى كتابته وقراءته – على قدرة الله تعالى القاهرة الغالبة التى لا يعجزها تدمير الكون يوم القيامة وإسعاد المؤمنين بدار المقامة، وتخليد الكافرين فى نار جهنم ، وتقرير قدرته على إخبار الإنسان بما قدم وأخر، والوجهان يتناسقان –كما ترى – مع حديث السورة عن يوم القيامة عامة، وعن إخبار الناس بأعمالهم خاصة، وبالوقوف عليهما تدرك العلاقة المتناسقة المتوافقة بين آيات السورة وسياقها. والله أعلم.

التحليل البلاغى:

تم إقامة بناء الآية على أسلوب النهى (لا تحرك...) وغرضه البلاغى التوجيه والإرشاد، واستعمل النهى فى هذا المقام، لما يتميز به من حزم وقوة فى الدلالة حسب اقتضاء المقام له، مما يقرر فى نفس النبى –ﷺ– والمتلقين من بعده تكفل الله تعالى لكتابه حفظا ورعاية، وبثا للثقة فى قلوب الأجيال المتعاقبة فى منهج الإسلام وخلوده.

وهذا ما يتفق والمقام الذى بدا فيه النبى ﷺ حريصا على ألا يفوته شيء من القرآن العظيم فكان يردد مع جبريل حرفا حرفا كلمة كلمة [(١)]، وفى هذا من الجهد والمشقة ما فيه، فنهاه ربه تعالى عن ذلك رحمة وتربية وتعليما، وقدم الجار والمجرور (به) على مفعول (تحرك) تكريما للقرآن – مناط الحديث – وتنويها بشأنه ومكانته، وفى ذكر لسانه – ﷺ– مع إضافته إلى كاف الخطاب تشريف للنبى وتكريم له، فاجتمع بذلك تكريم المنهج وحامله، أو الرسالة ومبلغها، ليفهم الناس ويعتبروا.

ثم جئ بقوله (لتعجل به) تعليلا لتحريك لسانه – ﷺ– بالقرآن مخافة أن يفوته شيء منه، وليس ذلك مما يذم وإنما مما يثاب عليه « لأنه لا حامل له عليه إلا حب الله وحب ما يأتى به »[(٢)] وهذه العجلة فى فعل الخيرات من سمات أهل الكمال الراغبين فيما عند الله تعالى، كشأن موسى عليه السلام: (وعجلت

(١) ينظر / لباب النقول فى أسباب النزول / ص ٢٩٢.
(٢) نظم الدرر /٨/ ص ٢٤٩.

إليك رب لترضى) (طه / ٨٤) ولكن الله تعالى تكريما لرسوله الكريم نهاه عن هذا الذى هو سمة الكبار إلى ما هو أكبر وأعظم وأكمل، فنهاه عن العجلة وضمن له الحفظ والبيان.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الايات مثال لوقوع الاقتضاب المحض فى البيان القرآنى وهو (الانتقال من كلام إلى مالا يلائمه وهو مذهب العرب الأول ومن يليهم من المخضرمين) ومن علمائنا من قال بوقوعه فى القرآن العظيم ، ومنهم من رفض ذلك [١]، والحق الذى أراه أولى بالاتباع أنه ما من آية فى الذكر الحكيم إلا ولها وجه اتصال بما قبلها ، ومناسبة تمهد لما بعدها ، والممنوح من وفق إلى كشف هذه المناسبات والوجوه ، ولعل من يطالع (نظم الدرر) يعقد يده على بغيته ، بل سيجد الإمام البقاعى قد وفق للكشف عن وجه المناسبة بين الآيات ، بله الجمل والعبارات ، ومن ثم فإنى أميل إلى القول بعدم وقوع الاقتضاب فى البيان القرآنى ، بل أقول ذلك فى شعر المجيد من الشعراء [٢]، ويكفى فى بيان أوجه مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها ما ذكرته فى علاقة الآيات بسياقها فى الصفحات السابقة .

ختام:

اللسان فى هذا الموضع الذى جاء فيه بمعناه الحقيقى هو أظهر الألسنة فى البيان القرآنى، وقد جاء فى مقام التربية والتوجيه تكريما وتشريفا لصاحبه –ﷺ– وفى هذا توجيه للأمة باعتماد منهج التربية والتقويم فى شأن آلة لغتها خاصة، وفى جميع شئونها عامة، فهذا نبيها فى البيان القرآنى يربى ويعلم وهو متبوع والأمة تابعة له –ﷺ–.

---

(١) تنظر/ هذه القضية فى : شروح التلخيص /٥٣٨/٤ ، والتفسير الكبير للرازى /٣٠/ صـ٣٢٢، ٣٢٤ ، والبحر المحيط / لأبى حيان /٨/صـ٣٨٦، والإتقان /٢/صـ١٠٩ ، والأقصى القريب / التنوخى صـ٨٣ وما بعدها .

(٢) ينظر/ توافق المعانى وتناسقها فى "بانت سعاد" لكعب بن زهير ﷺ للباحث / مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية /عدد/٢٥/مجلد ٢/٢٠٠٩م .

من السمات البلاغية للبيان القرآنى عن اللسان بمعناه الحقيقى

بلغت مواضع مجئ كلمة اللسان بمعناها الحقيقى فى البيان القرآنى ستة عشر موضعاً، واختلف المقام الذى وردت فى سياقه، وكان مقام الذم والتشنيع أكثرها ورودا، وفى ذلك لفت إلى خطر اللسان إذا لم يقده صاحبه ويلجمه، وبدئ فيه بالأخطر كالكذب على الله وتحريف كلماته والتطاول على نبيه، والبدء به – إضافة لكبره وخطره – لما له من تأثير فى المواضع اللاحقة به، فهو سبب لها وداع للوقوع فيها.

كان النظم فى مقام الذم والتشنيع أبسط وأمهل وأبطأ، وفى مقام الدعاء والتضرع أسرع وأقصر، وكأنها حاجات ملحة يخشى موسى عليه السلام ترك واحدة منها، وتناسقا مع حالته النفسية التى عاشها عليه السلام لما أمر بمواجهة الباطل وطواغيته،وهكذا كان النظم متسقا مع المقام الذى وردت فيه كلمة اللسان على النحو الذى أشرنا إليه فى كل موضع.

برزت ظاهرة التأكيد فى نظم الآيات، وبخاصة فى الأسلوب الخبرى الغالب فيها، وأكثر أدواته (إن) واسمية الجملة، والتعريف، والتقديم، وكان للأساليب الإنشائية دور مؤثر فى بعضها من خلال صيغة الأمر، ثم النهى، ثم الاستفهام، واتسق كل منها مع المعنى الذى صور وقرر به، وجاء التشبيه التمثيلى فى موضع واحد، وتعددت الاستعارة التصريحية التبيعية منها والمكنية، وكان للطباق من بين فنون البديع حضور فى بعض المواضع توضيحا للمعنى، وتأكيدا له، وتعجيبا من قدرته تعالى.

❁❁❁

المبحث الثاني

اللسان: ومعنى اللغة والبيان

المستبصر للبيان القرآنى يجد كلمة اللسان قد وردت فيه بمعنى اللغة والبيان على سبيل المجاز المرسل فى ستة مواضع، وجاءت مرفوعة بالابتداء فى موضع واحد مرتين، ومنصوبة فى موضع واحد، ومجرورة فى أربعة مواضع، وأضيفت إلى ضمير المخاطب –ﷺ– فى موضعين، وإلى قومه فى موضع واحد، وإلى الموصول (الذى) فى موضع، وموصوفة بكلمة (عربى) فى حالة الجر مرتين، وفى حالة النصب مرة واحدة، واستعمال اللسان مجازاً مرسلا بمعنى اللغة والبيان يظهر أهميته، وعظيم دوره فى هذا المجال الحيوى المؤثر فى حياة الناس عموما، وفى حسن تلقيهم للبيان القرآنى خصوصا، مما يوجب الاعتناء به، وضرورة تهذيبه وتقويمه.

البيان والتفصيل:

سنتناول المواضع الستة التى اشتمل عليها هذا المبحث وفق مجيئها فى ترتيب سور الذكر الحكيم دون اعتبار آخر، لما أراه فى سياق ترتيب السور القرآنية من ظاهرة تصاعد المعنى وتناميه وتكامل أجزائه وانبناء اللاحق منه على السابق، مما يزيد القول: بأن ترتيب السور القرآنية توقيفى لا توفيقى [1] قوة وتأكيدا.

الموضع الأول: **فى سياق سورة (إبراهيم)**

جاء فى قوله تعالى من سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

مقصودها التوحيد وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله، لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه المؤدى إليه، ناقل بما فيه من الأسرار للخلق من طور

(١) فى ذلك أقوال ثلاثة: القول بأنه توقيفى، تولاه النبى –ﷺ– كما أخبره جبريل عليه السلام عن أمر ربه. القول بأنه اجتهاد الصحابة. القول بأن بعضه توقيفى، وبعضه اجتهاد الصحابة / ينظر / الإتقان /٤/صـ١٧٦ وما بعدها ، ومباحث فى علوم القرآن / مناع القطان / ص ١٤١ وما بعدها، ومناهل العرفان فى علوم القرآن / محمد عبد العظيم الزرقانى / ١/ص ٣١٢.

إلى طور، وأدل ما فيها على هذا المرام قصة إبراهيم – عليه السلام – أما التوحيد فواضح، وأما الكتاب فلأنه من جملة دعائه لذريته الذين أسكنهم عند البيت المحرم من ذرية إسماعيل عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ ﴾[1] البقرة: ١٢٩

واشتملت وهى تحبر هذا المقصود على أغراض كثيرة، مستهلة بالتأكيد على كمال هداية القرآن الكريم وإخراجه الناس من الظلمات إلى النور، ومختتمة بقوله: (هذا بلاغ للناس....) وهو ختام غاية فى البلاغة وحسن الانتهاء.

وقد جاءت الآية لتؤكد أن كل رسول أرسل بلغة قومه وبيانهم، ونزل القرآن وهو أفضل الكتب المنزلة هداية، وأعظمها إرشادا بلسان عربى مبين إلى الناس كافة « لأن اللسان العربى أسهل الألسنة وأجمعها وأفصحها وأبينها فكان غاية العدالة، وختم بأن السبيل إليه فى غاية الاستقامة والاعتدال، دل على شرف هذا اللسان لصلاحيته لجميع الأمم وخفته عليهم بخصوص لسان كل الرسل بقومه »[2] وهذا مرتبط بمقصود السورة الذى منه بيان أن هذا الكتاب غاية فى الكمال والبلاغة والجلال.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

افتتحت السورة بما هو دال على أنه تعالى أنزل الكتاب الكامل فى الهداية، التام فى البشارة والنذارة، واتسقت الآية مع ذلك بتقريرها نزول القرآن بلسان العرب ولغتهم، وهى أشرف اللغات وأجمعها وأكملها مما جعلها جديرة بأن يتنزل القرآن بها، فالتناسب واضح بين الآية وسياقها.

التحليل البلاغى:

اللسان فى الآية بمعنى اللغة والبيان مجازا مرسلاً علاقته (الآلية)[3] فاللسان آلة اللغة التى تحصل بها، وفائدته البلاغية المبالغة فى المعنى بالوصول به إلى منتهاه حتى لكأنك ترى المتكلم بلسان لا بلغة، وتأكيد المعنى وإثباته، لما

(١) نظم الدرر / ٤/ ص ١٦٠.
(٢) نظم الدرر / ٤/ ص ١٦٧، ١٦٨.
(٣) والفرق بين الآلة والسبب أن الآلة هى مابه يفعل الشئ ، أما السبب فما به وجود الشئ واللسان فى الآية يقال : إنه آلة اللغة ، ولا يقال : إنه سببها/ ينظر/ حاشية الأنبابى على الرسالة البيانية للصبان /صـ١٩٧ ، وشرح التلخيص/ ٤/صـ٤٢، وبغية الإيضاح /٣/صـ٨٧.

فيه من إقامة الدليل على المراد وتحقيق الإيجاز فى النظم، فلا شك أن ما جاءت عليه العبارة أبلغ وأوجز من مثل قولنا: وما يرسل الرسول إلا بلغة قومه المترتبة على آلتها اللسان.

وسر إضافة اللسان إلى (قومه) الإرشاد إلى وجوب شكره تعالى بجعله كل رسول يتكلم بلغة قومه ليفهمهم، ويقربهم إليه، وهذا ما يبعث على الاستجابة والاهتداء وهو ما يتحقق به الاستهلال بقوله: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور).

وأقيم نظم الآية على أسلوب القصر (النفى والاستثناء) وهو أقوى الطرق وأبلغها، وشأنه – لذلك– أن يأتى فى مقام الإنكار،وهذا هو رأس الأمر فى هذا الطريق فلا يأتى إلا فى المعنى الذى يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد [١]، وهذا ما يجعلنا نقف أمام العبارة ونتسائل: هل كانوا ينكرون إرسال الرسل بلسان قومهم،أم أنهم لعصيانهم ومروقهم وعدم اهتدائهم نزلوا منزلة المنكرين ؟ وعلى كل فهو صالح للرد على هؤلاء وأولئك، ويكون قصراً حقيقيا يقرر أنه ما من رسول إلا أرسل بلسان قومه، أما إذا كان المخاطبون ممن يعتقدون أن القرآن لو كان منزلا من عند الله لنزل بلغة الكتب السابقة [٢]، فيكون القصر إضافيا، قصر قلب، قلب اعتقادهم وردهم إلى الصواب، والمقصور (الإرسال) موصوف، والمقصور عليه (كونه بلسان قومه) صفة.

وإسناد (أرسل) إلى (نا) يفيد تعظيم هذا الإرسال وتفخيمه وتقدسيه، مما يهيئ العقول للقبول، والقلوب للاستجابة والاطمئنان إليه، وأهميته فى التأثير فى المتلقين، ويفيد النفى فى قوله: (من رسول) الاستغراق فى النفى، فيشمل كل من أرسل إلى قوم من الأقوام، بأن الله أرسله ملتبسا بلسان قومه، متكلما بلغتهم.

وجئ بقوله: (ليبين لهم) تأكيدا على عظيم إحسانه تعالى إلى عباده، وسعة رحمته بهم، فالتبيين التوضيح، وهو ما ييسر للناس الفهم وحسن الاستجابة، وفيه

(١) ينظر / دلائل الإعجاز / ص ٣٣٢ ودلالات التراكيب / د/ محمد أبو موسى / ص ١٤٠.

(٢) التحرير والتنوير /٧/ ص ١٨٥ وما بعدها.

تعليل لما أقيم عليه أسلوب القصر، فغاية إرسال كل نبى بلغة قومه أن يبين لهم، وهذه هى مهمة الرسل عليهم السلام – ولذا فإن التعبير فى قوله: (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) يهدف إلى تقرير الحقيقة الكبرى، وهى أن الهداية بيد الله تعالى وحده، وعمود هذا المعنى الاستهلال بقوله: (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم...) فليس للرسل إلا مهمة البيان، والاستجابة وغيرها فبيد الله جل جلاله، وهذه دعوة لطيفة إلى التعلق به تعالى والتوجه إليه والخضوع له.

وفى إسناد الفعل (أرسل) إلى ضمير العظمة (نا) ثم إسناد الفعل (يضل) إلى الاسم الجليل (الله) التفات من التكلم إلى الغيبة، وعلة الالتفات ما فى الإسناد إلى الاسم الجليل من تأكيد هذه الحقيقة السابقة وتثبيتها وتفخيمها فما يملك أحد أن يضل أحدا، ولا يهديه إلا بإذن الله العظيم، والفاء فى (فيضل) تفصح عن محذوف تقديره (فبينوه لهم) [1] فيضل الله من يشاء، ويهدى من يشاء.

وسر تقديم (يضل) على (يهدى) الاهتمام بالمقدم لخطره وهلاك من قدر له ذلك، ولزيادة تأكيد أن الأمر كله لله تعالى،والطباق بينهما يظهر هذه الحقيقة ثابتة واضحة جلية ماثلة أمام المتلقى، فهذا يراه مهديا بإذنه، وهذا ضال وفق حكمته وإرادته وعلمه، وهى حكمة متجددة مستمرة فى كل أمة، بدلالة صيغتهما.

وختم نظم الآية بما يؤكد ذلك ويقرره: (وهو العزيز الحكيم) فالعزيز: الغالب الذى لا يغلب، والحكيم: الذى جعل كل شيء وفق حكمته تعالى البالغة، وهما مناسبان لما تضمنه قوله: (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) فلا يغالب سبحانه فيهما، وهو يؤكد ما سبق من أن مهمة الرسل ووظيفتهم البيان، وأما الهداية فلا يملكها إيجادا ومنحاً ومنعاً إلا الله وحده، والآية تفصل جانبا عظيما من جوانب المعنى المجمل فى مفتتح السورة وتوضحه، مما يجعل المتلقى على وعى بما سيرد عليه فى ثنايا السورة من أغراض ومعان تفصل هذا المجمل وتزيده بيانا، وهذا شأن بلاغة الاستهلال فى البيان القرآنى.

الموضع الثانى: فى سياق سورة (النحل)

(١) ينظر / تفسير أبى السعود / ٥/ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

جاء قوله تعالى من سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

مقصود السورة وعلاقة الآية به :

إذا كان مقصود السورة الدلالة على تمام القدرة وسعة العلم[١]، فإن هذه الآية برهان عليه، وتفصيل لجانب منه، فقد أطلع الله تعالى نبيه –ﷺ– ومن معه على فرية زعم المشركين بأن محمدا يتعلم هذا القرآن من بشر، سموه باسمه، وتباينت الروايات فى تعيينه [٢]، وكان الله بما يزعمون محيطا، فكشف زعمهم، وعرى باطلهم، وهذا تفصيل لجانب من مجمل المقصود وتقريره.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

سياق الآية يتناول شئون خاصة بالقرآن المجيد، كآداب القراءة،وأكاذيب المشركين عنه، ومنه هذه الفرية التى ادعوا فيها بأن الرسول –ﷺ– يتعلم القرآن من بشر، وبذلك تواصلت الآية مع سياقها وترابطا ترابطا وثيقا.

التحليل البلاغى:

من الوقوف على مكونات نظم الآية ندرك شناعة فريتهم، وقبح زعمهم، وفضيحة أمرهم، ومن جانب آخر ندرك جلال لغة القرآن الكريم وجمالها وأصالتها وتميزها عن غيرها، وقد عرضت فريتهم أولاً، ثم رد عليها ثانيا.

أما عرضها فقد اعتمد فيه على أسلوب توكيد مزلزل بـ (واو) القسم ولامه وقد، وهذا التأكيد « يشير إلى أن خاصة المشركين كانوا يقولون ذلك لعامتهم ولا يجهرون به بين المسلمين، لأنه باطل مكشوف وأن الله أطلع المسلمين على ذلك »[٣] ومجئ التوكيد على هذا النمط العالى يقرر إحاطته تعالى بمزاعم المشركين

(١) ينظر / ص٢٢ / من هذا البحث.

(٢) فى بعض الروايات اسمه: بَلْعام، وفى بعضها: يعيش، وقيل كان اسمه جَبْر، وقال آخرون: بل كانا غلامين، اسم أحدهما يسار، والآخر جبر، إلى غير ذلك / ينظر / جامع البيان فى تأويل القرآن /٧/ ص ٧١١ – ٧١٣ ولباب النقول / ص ١٦٥، ١٦٦.

(٣) التحرير والتنوير /٧ / ص ٢٨٦.

وافتراءاتهم وإن تخافوا عن النبى وأصحابه،مما يجعل للطمأنينة سبيلا إلى القلوب المؤمنة، ليتواصل الإبلاغ عن الله تعالى، فالأسلوب القائم على هذا التوكيد يحمل تهديداً للمشركين، وتطميناً للنبى وصحبه.

وجاءت صيغة المضارع (نعلم) موضع صيغة الماضى، لأن المعنى – والله أعلم – ولقد علمنا، وهذا ضرب من الاستعارة فى الفعل باعتبار زمنه ، غرضها تصوير إحاطة علمه تعالى بهم فى كل زمان، فى الماضى والحاضر والمستقبل، فلن يملكوا الهرب من إحاطته بهم وقدرته عليهم.

ويبرز الأسلوب التوكيدى كذلك فى قوله: (أنهم يقولون إنما يعلمه بشر...) لتتقرر صورة المعنى فى نفوس المتلقين، فهم يدعون ذلك خداعاً لأنفسهم –أولا– كى لا تعترف بالحق، وتضليلا للناس حتى لا تتبع الهدى، وصيغة المضارع من القول تطلعنا على تجدد ذلك منهم واستمراره، وأقيمت فريتهم على أسلوب القصر بـ (إنما) ولم يؤت بالطريق الأقوى (النفى والاستثناء) للدلالة على أنه أمر جلى لا يحتاج إلى مزيد توكيد، تنزيلا للمجهول منزلة المعلوم [1]، قصر تعليمه –ﷺ– القرآن على (بشر) قصر صفة على موصوف.

وهذا منهم يدل على أنهم كانوا أصحاب فكر يجتهد فى محاولات الصد عن القرآن والنبى، ومقارعتهما ومصارعة أتباعهما، ومن جانب آخر يظهر التعبير وقوفهم على حقيقة باطلهم، فكيف يقولون هذا عن كتاب خبروا بلاغته، وذلت أعناقهم لفصاحته، ثم يزعمون أن معلمه بشر ؟! هى حيلة ومكيدة وحمق مكشوف وجهل مفضوح يظهر لكل راء.

ولذا ردت فريتهم بأسلوب اعتمد فيه على ظاهرتين بلاغيتين: الأولى: الوضوح والبساطة الخالية من جدل مرهق للعقل، الثانية: الاختصار الذى نفذ البيان من ورائه إلى فضح كذبهم، وكشف زيفهم، تدبر قوله: (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) والتعبير باللسان مجاز مرسل علاقته الآلية، فهو بمعنى اللغة والبيان، وهو يسلط الضوء على أهمية اللسان ودوره فى ميدان الإبانة مبالغة وإيجازا وتأكيداً، وإيثار الموصول فى قوله: (لسان الذى يلحدون...)

(١) ينظر / دلائل الإعجاز / ص ٣٥٧، وبغية الإيضاح /٢/ ص ١٧.

دون تعيينه يفيد أمرين: إشهار صلته التى يتعلق الغرض بها، وهو إبطال كذبهم، وإشهارها والتركيز عليها، يكشف أمرهم ويفضح ادعاءهم أن معلمه أعجمى اللغة، ومثله لا يتأتى منه هذا الذى أخرس أهل البلاغة وأرباب الفصاحة، والنظم بالاسم الموصول يقابل تجهيلهم لـ (بشر) النكرة وتحقيره بالتجهيل والاستهجان.

ومعنى (يلحدون) يميلون، لكن اختيار البيان القرآنى لهذه المادة التى اشتقت منها صيغة المضارعة، يظهر مالها من خصوصية الدلالة على تأصل اعوجاجهم عن الحق دائما، يقول ابن فارس: « اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة: يقال: ألحد الرجل، إذا مال عن طريقة الحق والإيمان، وسمى اللحد لأنه مائل فى أحد جانبى الجَدَث. يقال: لحدت الميت وألحدت. والملتحد: الملجأ، سمى بذلك لن اللاجئ يميل إليه »[1] فالكلمة دالة على اعوجاجهم وميلهم عن الحق الثابت الواضح بأن القرآن منزل من عند الله العظيم.

وفصلت جملة (لسان الذى يلحدون إليه...) عما قبلها، لشبه كمال الاتصال، فهى كالجواب عن سؤال يثيره قوله: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) ومضمونه فما كان رد باطلهم ؟ وجاءت هذه جوابا عنه،وهذا لون بديع من الإيجاز والتواصل بين المتلقى والنظم الكريم، وحث على المشاركة والتدبر المأمور به فى التعامل مع كتاب الله تعالى، ودعوة لإعمال العقل المسلم وتنشيطه للوقوف على ما يفيد وينفع، وبان ما للمجاز المرسل باللسان من أثر واضح فى النظم والتقاء النظم حوله تأكيدا وتوضيحا.

ويدل النظم فى قوله: (وهذا لسان عربى مبين) على كمال مدح القرآن وتمام الثناء عليه، فاسم الإشارة (هذا) يفيد تمييز القرآن المشار إليه أكمل تمييز، وقربه وسيلة تعظيم وإجلال، والمجاز المرسل يؤكد عربيته، ويقرر تفرده عما يزعمون، والوصف باسم الفاعل (مبين) يدل على كمال بيانه وتمامه، والطباق بين (أعجمى) و(عربى) يظهر ما بين أعجمية الذى ينسبون الفرية إليه، وعربية البيان القرآنى وفصاحته من تفاوت وتضاد وتنافر لا يخفى على أحد.

(١) مقاييس اللغة / مادة / لحد /٥/ ص ٢٣٦.

ووصل بين الجملة وسابقتها للتوسط بين الكمالين،وقد حسن الوصل لما بين الجملتين من اتفاق فى الاسمية، ومجئ كلمة (اللسان) مجازا مرسلا بمعنى اللغة والبيان، ولما بينهما من تضاد يوضح أعجمية الذى ينسبون إليه باطلهم، وعربية البيان القرآنى.

الموقع الثالث: **فى سياق سورة (مريم)**:

فى سورة (مريم) جاء اللسان فى قوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تقصد سورة مريم إلى تقرير التوحيد، وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وتثبيت التصديق بالبعث وبما يعد من شئون الآخرة والإيمان بها، وتحقيق الإيمان بمنهج أهل الحق وفوزهم وفساد منهج أهل الباطل وخسرانهم [1].

وللآية وجه تلتقى به مع مقصود السورة، فهى تهدف إلى بيان جانب من عظمة القرآن وجماله، حيث إنه يسر بلغة النبى العربى وقومه، ليؤدى غايته بما يحمل من بشارة ونذارة، وهذا التيسير يقيم التوحيد الخالص فى قلب من صدق واتبع وهو عين ما قصدت السورة إليه.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

سبقت الآية بذكر قبائح الكافرين، ثم خص المؤمنون بذكر بعض أحوالهم، وفى هذا منهج بلاغى أصيل بالمقابلة بين الفريقين وأحوالهما، ثم حملت الآية إلى المتلقى من وراء هذا المنهج مهمة القرآن العظيمة (لتبشر به المتقين) و(لتنذر به قوما لدا) وهى بهذا تنسق مع سياقها وترتبط به ارتباطا ينبئ عن انتهاء السورة وتمامها.

التحليل البلاغى:

(١) ينظر / صفوة التفاسير / محمد على الصابونى /٨/ ص ٧٩٤.

تآزر نظم الآية على تأكيد تيسير الله للقرآن الكريم بإنزاله على لغة النبى أفصح العرب وأعلاهم بلاغة، وجرى النظم على طريقة المجاز المرسل فى التعبير باللسان عن اللغة والبيان لأنه آلتها، والفاء فى (فإنما يسرناه....)« لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فإنما يسرناه بلسانك العربى المبين لتبشر به المتقين... وتنذر به قوما لدا... »[1] ولحظ المحذوف من المعنى ضرب من تحديد المعانى وتأكيدها.

وبنيت الآية على أسلوب القصر بـ (إنما) وهى – كما يرى البلاغيون – تأتى فى الكثير الغالب فى الحكم الذى يعلمه المخاطب ولا ينكره ولا يجهله [2]، ومعنى هذا أن إنكاره يزول بأدنى تنبيه لعدم إصراره عليه، ويدرك كل متدبر للبيان القرآنى هذه الحقيقة، ويقف على ما يتميز به من تيسير للحفظ والتلاوة،وقد أقر العرب ببلاغته، وشهدوا بفصاحته، والقصر حقيقى تحقيقى، قصر موصوف على صفة، قصر تيسير القرآن على كونه بلغة النبى –ﷺ– لغرض البشارة والنذارة، وصيغة المضارع تفيد تيسيره لكل الأجيال، ولا حجة لجيل يهمله تلاوة وحفظا وتدبراً وعملا، وألمح فيه تعريضا بكل من لم ينتفع به، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة يقطع بجلال هذا التيسير وجماله وارتفاع شأنه، وإيقاعه على ضمير القرآن (الهاء) وإضافة (لسان) إلى ضمير النبى يفيد تكريمهما وتشريفهما وعلو مكانتهما.

ثم عبر بقوله: (لتبشر به المتقين) عن الغاية الأولى لتيسير القرآن بلسان النبى –ﷺ– واختير الفعل (تبشر) لأن التبشير – إذا أطلق– لا يكون إلا بالخير، مع دلالة أصل الكلمة على ظهور الشيء مع الحسن والجمال [3]، وسمى الخبر السار بشارة، لأنه يبسط بشرة الوجه، فالنفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار

(١) تفسير أبى السعود /٥/ ص ٢٨٤، وينظر / فتح القدير / الشوكانى / ٣/ ص ٣٥٣، ومفتاح الإعراب / محمد أحمد مرجان / ص ٣١.

(٢) ينظر /دلائل الإعجاز / ص ٣٣٠ ومفتاح العلوم / ص ١٤٢ وحاشية الدسوقى /٢/ ص ٢١٤.

(٣) مقاييس اللغة / مادة / بشر /١/ص ٢٥١.

الماء فى الشجر [١]، وفى هذه الدلالة مع صيغة المضارعة ما يسعد النفس ويبهجها،ويرقى أحاسيس الجمال الإيماني الكامنة، وأعلاها صفاء النفس والقلب ونقاؤهما بالتقوى والإيمان.

واتسق مع جمال البشارة وجلالها التعبير بالتقوى، وهى مقام عال لكل من ترقى فى مدارج السلوك المستقيم، وهجر كل ما ينتقص من حسن الفقه عن الله وخشيته [٢]، ولشيء ما استهلت السورة الثانية فى البيان القرآنى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ فالعلاقة بين هداية القرآن وبشارته والمتقين واضحة فى البيان الكريم.

ثم عبر بقوله: (وتنذر به قوما لدا) عن الغاية الثانية، والإنذار إخبار فيه تخويف كما أن التبشير إخبار فيه سرور [٣]، وصيغة الفعل تتفق مع صيغة التبشير فى المضارعة، فالإنذار مستمر فى كل من هو داخل فى جملة (قوما لدا) ومثل هذه الاستمرارية دحض لكل داع بكفر، وناعق بضلال أن دستور الإسلام تراث مضى عليه الزمان وتجاوزه، واختير التعبير بـ(قوما) لما فيها من معنى التحفز والقفز والوثب ووصفوا بـ (لدا) بمعنى: الخصم الجدل الشحيح الذى لا يزيغ إلى الحق،..... واللَّدَد: الخصومة الشديدة وقوله تعالى: (وتنذر به قوما لدا) قيل: معناه: خصماء عوج عن الحق، وقيل: صم عنه »[٤] ولا تعارض بينهما، فالخصومة الشديدة ينتج عنها اعوجاج عن الحق، وجدل شحيح وصم عنه، وهذا شأن كل من ينأى عن الذكر الحكيم ودعوته –ﷺ– وينهى عنهما، فما من صعوبة فيما يتلقون، ولكنها النفس المنطوية على الإثم، ومجئ هذه العبارة بعد ما لمح فى (إنما) من معنى التعريض وهو من أحسن مواقعها –تصريح بعد التعريض، وهو ضرب من تأكيد المعانى وتقريرها، فالعيب فى نفوس الخربة

(١) المفردات / مادة / بشر/ ص ٩٢.

(٢) بينت حقيقة التقوى فى قوله ﷺ: « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا لما به البأس » ابن ماجه – كتاب الزهد /باب / الورع والتقوى / حديث / ٤٢١٥.

(٣) المفردات /مادة / نذر / ص ٢٤٢.

(٤) اللسان / مادة / لدد.

وقلوبهم الآثمة، وخصومتهم اللدد، وللمقابلة بين (تبشر به المتقين) و(تنذر به قوما لدا) دور لا غنى عنه فى إيضاح المعنى وتقريره، فبها وضع النظم المتلقى فى مواجهة صورتين، صورة من تلقى البيان القرآنى وأحسن، وكانت غاية القرآن إسعاده وتبشيره، وصورة من تآزرت قواه، وتحفزت بضراوة وتعاونت ملكاته خصومة وكفرا وعنادا وصدا، وكانت الغاية إخباره بما يخيف ويرعب، وفى ذلك عبرة وعظة ودعوة للتقوى، وللإفادة من نزول القرآن باللسان العربى تيسيرا وتسهيلا.

الموضع الرابع: فى سياق سورة (الشعراء)

وجاء فى قوله تعالى من سورة الشعراء: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

مقصود السورة وعلاقة الآيات به:

تهدف الآيات إلى بيان جانب من آثار قدرته تعالى،وشمول علمه وسعة رحمته، فقد أنزل القرآن بواسطة جبريل – عليه السلام – على قلب نبيه – ﷺ– ليخوف الناس وينذرهم بلغة عربية واضحة مبينة، وهذا يحقق التوحيد فى قلوب المتلقين، ويقرر إحاطته تعالى وقدرته وهذا ما دعت إليه السورة بمقصودها كما سبق بيانه [1].

وجه ارتباط الآية بسياقها

جاءت الآية (بلسان عربى مبين) ضمن آيات تتحدث عن القرآن الكريم وتكشف عن سعة رحمته تعالى بإنزال القرآن بأعظم اللغات وأرفعها وأوسعها وأبلغها، لينذر الناس ويخوفهم عاقبة الكفر والتكذيب.

التحليل البلاغى:

الضمير فى قوله: (إنه) يعود إلى القرآن الكريم الذي استهلت السورة بالتنويه بشرفه، وعلو مكانته، واختير الضمير ليشير من خلاله إلى ما اشتملت عليه

(١) ينظر / صـ٤٩ من هذا البحث.

السورة من قصص اعتمد عليه البناء الكلى للسورة، وفيه إلماح لطيف إلى قبح إعراضهم عن مثله.

والتوكيد بـ (إن) واسمية الجملة واللام يقرر تنزيل القرآن من (رب العالمين) ويرد إنكار من ينكر ذلك من المشركين، واصطفى التعبير بـ (رب العالمين) لما فى (رب) من معانى التربية والتنشئة والرحمة والإحسان والفضل، ولا يخفى ما للقرآن من دور فى تربية المتلقين على الحق، وتنشئتهم على الفضيلة، وهدايتهم إلى ما فيه الخير والنجاة، وهى وغيرها من آثار ربوبيته تعالى.

وأضيف (رب) إلى (العالمين) دون غيره كالناس أو المسلمين...، للدلالة على عموم ربوبيته تعالى وشمولها، وعمومية الرسالة التى أنزل من أجلها القرآن الكريم، وأرسل النبى –ﷺ– ثم عبر بقوله: (نزل به الروح الأمين) عن جانب من جلال القرآن وقدسيته وحفظ الله له، فقد نزل به (الروح) وهى مادة الخير والداعية إليه ، ووصف عليه السلام بـ(الأمين) لتأكيد أمانته على الوحى فلا يخون ولا ينسى، وهذا مطمئن بأن القرآن وصل من طريق آمن كفل له الحفظ والرعاية.

ثم جئ بقوله: (على قلبك) ليجمع إلى أمانة النازل به طهارة مكان التلقى، حيث تلقى النبى القرآن تلقيا مباشرا بقلبه وهو أطهر القلوب وأعلاها وأوعاها، وتفيد (على) الاستعلاء، وهو ليس حقيقيا، حيث يكون من مكان عال فينزل على مكان آخر ، وإنما هو استعارة فى الحرف عن استقرار القرآن فى وعيه –ﷺ– وتمكنه فى قلبه، وعلل لذلك بقوله: (لتكون من المنذرين) دون المرسلين، ليتسق التعبير بالإنذار مع ما احتوته السورة من قصص تحذر من عواقب الكفر، وتنذر من مخالفة الحق، ودل المجاز المرسل فى قوله: (بلسان عربى مبين) على وضوح معانيه، وظهور مقاصده، وأن من ينأى عنه لا يصده خفاء ولا غموض، وأن كل من يتدبر بيانه يشعر بسلطان غلبة فصاحته ومنهجيته ووسائل تناسقه وإقناعه وإمتاعه، ويقر بأنه من مصدر أعلى وأجل، فمصدره (رب العالمين) وواسطة نزوله (الروح الأمين) ومحل قراره (قلبك) وعلة ذلك وهدفه (لتكون من المنذرين) وجمال لغته وجلال بيانه (بلسان عربى مبين).

الموقع الخامس: فى سياق سورة (الدخان)

فى قوله تعالى من سورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تتجه السورة إلى الإنذار من الهلكة لمن لم يقبل ما فى الذكر الحكيم من الخير والبركة رحمة جعلها بين خلقه مشتركة، وعلى ذلك دل اسمها الدخان إذا تُؤَملت آياته، وإفصاح ما فيها وإشاراته (١).

وإذا كانت السورة تقصد إلى تهديد من لم يهتد بالقرآن، فإن الآية تهدف إلى التذكير بنعمة تيسيره، ليقف الناس على معانيه، ويفهموا مراميه، رحمة منه تعالى وفضلا.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

جاءت الآية والتى بعدها: (فارتقب إنهم مرتقبون) ختاماً للسورة الكريمة، بعد مشهد يحتوى على صورتين: صورة مخيفة تظهر عاقبة المكذبين ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وصورة آمنة مرضية ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

وفى ظلهما جاء التذكير بنعمة تيسير القرآن، والتخويف من عاقبة من كذب، ليتقرر من وراء ذلك نهاية من خالفه، وحسن عاقبة من تلقاه بالرضا والقبول، والتقى بذلك الختام مع البدء بالتنويه بشأن القرآن ثم التحذير من عاقبة المكذبين، وهو كما ترى التقاء على الترتيب تناسقا وتناغما وتضافرا لإظهار مجمل المعنى وزبدته وجمع أطرافه وتقريره.

(١) نظم الدرر /٧/ ص ٦٢.

التحليل البلاغى:

تضافر نظم الآية على تأكيد مكانة القرآن وتعظيم شأنه، فالقصر بـ (إنما) يفيد تأكيد تيسيره لمن أراد أن يتذكر ويبتغى الهدى، وكما سبق بيانه وتكراره أوثرت إنما دون غيرها، لكونها تأتى فى الأمر الجلى البين، للدلالة على أن تيسيره وتسهيل مقاصده أمر ظاهر لكل بصير، وعبر بالمجاز المرسل ليصل بمعنى نزول القرآن بأعظم لغة وأفضل بيان غايته.

ويكشف نظم الآية بقوله: (لعلهم يتذكرون) جانبا عظيما من رحمته تعالى، وعموم نعمته، فعلة تيسيره تعود على الناس وترجع إليهم، ليتذكروا وينذجروا، ويلمح من وراء مجئ (لعل) عناية ورعاية وحرص على هداية المتلقين، وعبر بالتذكير لكونه أقوى أِسباب الهداية ووسائلها، وصيغة المضارعة بدلالتها على تجدد التذكر واستمراره باستمرار ابتغائه من هداية القرآن وتيسيره –رحمة ورفق.

الموقع السادس: فى سياق سورة (الأحقاف)

جاء اللسان بمعنى اللغة والبيان فى قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

المستبصر لسياق السورة يجده يدعو إلى وحدانية الله تعالى، وصدق الوعد فى قيام الساعة، والإيمان بصدق الوحى، ويطوف بقصص بعض الذين أهلكهم الله تعالى، لتبعث الرهبة فى قلوب الظالمين المعاندين، وللآية ارتباط بذلك لكونها تهدف إلى صدق الوحى والتنويه بشرف القرآن وسمو مكانته وهيمنته على الكتاب كله.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

وقعت الآية ختاما لآيات تتناول الوحى والرسالة والدفاع عنهما، ثم ختمت بالإشارة –هنا– إلى كتاب موسى، وتصديق القرآن له، وهى بهذا تتعاون مع سياقها فى تأكيد المعنى وتقريره.

التحليل البلاغى:

للتقديم شأن فى البيان القرآنى، وهو ضرب من تنوع الأسلوب والتوسع فيه وفق ما تقتضيه الأحوال ويتطلبه المعنى، وقدم المسند (من قبله) على المسند إليه (كتاب موسى) والضمير فى (قبله) يعود إلى القرآن الكريم السابق ذكره، والغرض البلاغى لتقديم المسند فى نظم الآية، الاهتمام به لاحتوائه على خبر محل قصد الجملة التى بنيت عليه، فبه يبطل ادعاؤهم استحالة أن يوحى الله تعالى إلى خير خلقه محمد –ﷺ– وذلك ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ ﴾ الأحقاف: ٨ والتقديم يهدف من وراء الاعتناء بالمقدم والاهتمام به، التأكيد على أن الوحى سنة إلهيئة، ومشيئة ربانية سبقت فى الأمم السابقة، ومن أشهرها عند هؤلاء المكذبين رسالة موسى – عليه السلام– وبناء على هذا فما المانع أن تشاء حكمته تعالى أن يختم بمحمد –ﷺ– ؟ ولذا أضيف (كتاب) إلى (موسى) فى المسند إليه المؤخر دون أن يقال: التوراة كما جاء فى غير موضع من البيان الحكيم، وذلك

« لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد –ﷺ– تلميحا إلى مثار نتيجة قياس القرآن مع كتاب موسى بالمشابهة فى جميع الأحوال » [١] وهذا المعنى الذى دل عليه النظم بالإضافة ناظر إلى قوله تعالى فى السورة ذاتها ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ الأحقاف: ٩.

والإمام فى اللغة: كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين[٢]، وجاء فى نظم الآية (إماما) لأن كتاب موسى –عليه السلام – أصل للعقيدة والتشريع، وكان كتاب عيسى – عليه السلام – تكملة وامتداداً له [٣]، ومن ثم فهو أصل فى الإرشاد والتوجيه إلى ما يجب عمله عقيدة وشريعة، وإذا كان هذا شأن الكتاب فهو شأن صاحبه أيضا، فموسى ضرب خبره فى البيان القرآنى لكونه إماما يقتدى به وبخاصة فى مواجهة الباطل، ومقارعة الطواغيت.

وعطف قوله: (رحمة) على (إماما) ليجمع مع الأصالة والإمامة الرحمة التى جاءت مصدرا نكرة للمبالغة فى اشتمالها على خيرى الدنيا والآخرة، وإذا كان الكتاب رحمة فكذلك من أرسل به، وقد تجلت هذه الرحمة فى إنقاذ بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وحررهم من العبودية التى لازمتهم زمنا طويلا، وهدوا به – عليه السلام – إلى الحق والهدى.

ويتجه النظم إلى تأكيد شرف القرآن وسموه وعل شأنه، بقوله تعالى: (وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا....) والإشارة للقريب مدح له وثناء عليه، وأن حضور ذكره كحضور ذاته تكريما وتعظيما، وسمى القرآن (قرآنا وكتابا) من القراءة والكتابة « إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه من موضعين، لا فى موضع واحد، أعنى: أنه يجب حفظه فى الصدور وفى السطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحدهما الأخرى،... »[٤] وأطلق عليه فى نظم الآية (كتاب) دون

(١) التحرير والتنوير /١٢/ ص ٢٤.
(٢) لسان العرب / مادة / أمم.
(٣) ينظر / فى ظلال القرآن / ٦/ ص ٣٢٥٩.
(٤) النبأ العظيم /د/ محمد عبد الله دراز / ص ١٣.

(قرآن) مراعاة لقوله: (كتاب موسى) وهذا أليق بالقياس عليه، وأقرب رحما به، ولم يضف (كتاب) إلى (محمد) كما قال (كتاب موسى) إشارة إلى عمومية رسالته، وختم الكتب السماوية به، ومن ثم فليس بحاجة إلى إضافة تميزه؛ لما فى ذاته من تميز وتفرد باقيين إلى يوم القيامة، وتلمح شيئا من ذلك فى حذف متعلق (مصدق) دلالة على تعميم التصديق، فلو قيل: (مصدق له) لتوجه إلى كتاب موسى، ولكنه تصديق شامل لكل الكتب السماوية، تشريفاً للقرآن، وتكريماً له.

وزيد ثناء ومدحا بقوله: (لسانا عربيا) مجازا مرسلا علاقته الآلية، وأشرف اللغات ما اختيرت لغة للقرآن الكريم، والنظم يشير – كذلك– إلى جهل المكذبين، وضيق أفقهم، لعدم انتفاعهم بكتاب جاء بلغتهم التى هم أرباب فصاحتها وأئمة بلاغتها إلا العناد والجحود.

ثم علل النظم لإنزال الكتاب بلسان عربى (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) وعبر مع النذارة بصيغة المضارع دلالة على تجددها واستمراريتها رحمة بالعباد، لعلهم ينتفعون، وجئ بالموصول وصلته (الذين ظلموا) دون قولنا: (الظالمين) ليشمل كل من عنده شائبة ظلم، سواء من تأصل فيه الظلم وصار طاغوتا عريقا فيه، أو من لم يبلغ ذلك، أما (الظالمين) فيدل على من بلغ ظلمه مبلغا صار مثالا يضرب لغيره، وهذا جانب من رحمته تعالى فى جعله النذارة تجرى مع هذا وذاك، وإسناد الفعل إلى ضمير يعود على (كتاب) مجاز عقلى علاقته السببية، فليس الكتاب هو المحدث للنذارة والفاعل لها، ولكن المجاز أفاد قوته فى هذا الباب، وتأثيره العميق فى نفوس الظالمين.

وفى جانب البشرى جاء النظم بـ (بشرى للمحسنين) لدلالة الاسمية على ثبوتها ودوامها، وتنكير (بشرى) يفيد كمالها ورفعة شأنها، واتسق مع ذلك التعبير بالمحسنين دون (الذين أحسنوا) كما قال: (الذين ظلموا) لدلالة (المحسنين) على ثباتهم وتأصل الإحسان فيهم، وتمكنه من قلوبهم، فصاروا أهلا لأن يثنى عليهم بهذه الصفة، والمقابلة بين (لينذر الذين ظلموا) و(بشرى للمحسنين) يظهر للمتلقى المعنى ويؤكده، لعله يختار الأعلى، ويكون من أهل الإحسان الثابتين عليه، ويكون القرآن بشراه الدائمة آناء الليل وأطراف النهار.

من السمات البلاغية لمجئ اللسان بمعنى اللغة والبيان

فى ستة مواضع جاء اللسان بمعنى اللغة والبيان مجازا مرسلا علاقته الآلية،وقد أضيفت الكلمة إلى ضميره –ﷺ– وفى بعضها وصف بـ (عربى مبين) و(عربيا مبينا) وفى أحد المواضع أضيف إلى (قومه) وجميعها يؤكد عربية القرآن الكريم ووضوح بيانه،وسهولة الوقوف على معانيه ومقاصده، ولا حجة لمكذب إلا جهله وكبره وجحوده.

وأقواها فى الدلالة على ذلك الإضافة إلى ضمير النبى –ﷺ– وذلك لما خص به –ﷺ– من الفصاحة العالية، والبلاغة السامقة « فبيانه عليه السلام فى ذروة من البلاغة البشرية لا تطاول، إذ كان جامعا لكل الأساليب الرفيعة، من حجة عقلية، ودليل وجدانى، وتصوير للمعانى، وضرب أمثال وقصص، وترغيب وترهيب، إلى غير ذلك من فنون التعبير البليغ»[1] دون تكلف ولا قصد، كل ذلك بإلهام وتوفيق، ونزول القرآن بلغة من هذا شأنه دليل على بلوغها حد الإعجاز الذى لا ينازع، وحد البلاغة الذى لا يعارض.

يهدف النظم فى المواضع كلها إلى غرضين كبيرين: أهمية اللسان فى هذا الميدان، فهو آلة الكلام وسبيل البيان، وحاجة الناس إليه عظيمة فى الإبلاغ عن الله تعالى، وتلقى هديه، مما يوجب على أهل الإيمان العمل على تقويمه وتثقيفه وتدريبه وأن لا يتركوا هذا الميدان للمفسدين المضلين، وحال الأمة فى ذلك يدمع ويدمى. وضوح البيان القرآنى وجلاله وجماله، وهذا ما يدعو الأمة إلى الانتصار للغتها والترقى فى مدارجها والبحث الدؤب لاكتشاف الجديد من خصائصها وفرائدها ولطائفها، وهذا ضرب من ضروب الجهاد فى سبيل الله . وكان للمجاز المرسل دور بار فى تأكيد ذلك وتصويره، وبرز التوكيد من وراء أسلوب القصر بـ (إنما) واسمية الجملة والتقديم ، ومن الجدير بالذكر أن ابن منظور صاحب لسان العرب قد ذكر فى بعض المواضع من لسانه أن كلمة اللسان كناية عن الكلام[2]،

(١) لمحات من هدى النبى –ﷺ– وبلاغته / د/ عبد الغنى بركة / ص ٥، ٦ مؤسسة دار التعاون، وينظر / إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعى / ص٢٨٢ / دار الكتاب العربى / لبنان.

(٢) لسان العرب / مادة قطع .

وهذا كما يقول الدكتور/ أحمد هنداوى – يعطينا دليلا واضحا على أن اللفظ الواحد عنده يمكن أن يكون مجازا مرسلا ويمكن أن يكون كناية ، ولا تعارض فى ذلك [١]، فالمثال الواحد يمكن أن يكون كناية لغوية باعتبار ، ومجازا مرسلا باعتبار آخر [٢].

(١) المجاز المرسل فى لسان العرب /صـ١٥٧،١٥٨ مكتبة وهبه/ ١٤١٩/٢– ١٩٩٨.

(٢) ينظر/ البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى /د/ محمد أبوموسى /صـ٤٦٧/ دار الفكر العربى.

المبحث الثالث

اللسان: ومعنى الذكر الحسن

وردت كلمة اللسان فى البيان القرآنى فى موضعين بمعنى الذكر الحسن والثناء الجميل على سبيل المجاز المرسل وعلاقته الآلية، وأضيفت الكلمة فى الموضعين إلى كلمة (صدق) وخص بهما إبراهيم عليه السلام وبنيه فى موضع تكريما ومنا وعطاء حسنا، وفى الموضع الثانى جاءت كلمة اللسان فى سياق دعوة إبراهيم عليه السلام.

ومن هذا البيان نضع أيدينا على إشارة دقيقة ولمحة لطيفة على ما عهد عن إبراهيم من استبصار خبره فى بيان الوحى قرآنا وسنة من جهاد وتضحية وهجرة، فتراه فى ذلك مع أبيه وقومه، ومع عبدة الكواكب، ومع من نازع العظيم سبحانه فى عظمته وكبريائه،.... [1]، ترى مجاهدا محبا للخير فاعلا له وناشراً فى الناس.

وبلغ من حبه للخير وحرصه عليه أن كانت منه هذه الدعوة الإبراهيمية التى خلدها البيان القرآنى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الشعراء: ٨٤ لينال آجره، ثم أجر من اقتدى به، وعمل بعمله، وقد تحقق له –بفضل الله – ما دعا به، فمما أثنى الله به عليه: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ النحل: ١٢٠ وأمة: أى: قدوة إماما مهتديا داعيا إلى الخير، يقتدى به فيه[2]، فالتعبير باللسان فى الموضعين يظهر ما عليه خليل الرحمن من نزعة خيرية بلغت مبلغا متفردا حتى تنازعت فيه الأمم، وكان الحسم الإلهى﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ آل عمران: ٦٧ – ٦٨

هـــــذا:

ويرشد البيان القرآنى إلى أهمية سعى المسلم أن يكون قدوة بإخلاص وتجرد، حتى يرتبط الناس به ويثنون على أعماله ويكون ثناؤهم دافعا إلى العمل بعلمه،

(١) ينظر / البداية والنهاية / ابن كثير / ١/ ص ١٥٨ وما بعدها.
(٢) قصص الأنبياء / ابن كثير / ص ١٤٧.

فيكتب له الأجر مثل أجر فاعله، وهذا دور جليل للسان يظهر أثره النافع، وهو أثر يضاف إلى ما سبق فى مواضعه من البيان القرآنى.

البيان والتفصيل:

الموقع الأول: **فى سياق سورة (مريم)**

جاء اللسان بمعنى الثناء الحسن فى قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ مريم: ٥٠

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تهدف الآية إلى بيان عظيم فضله تعالى على إبراهيم وبنيه بأن جعل لهم ذكراً حسنا فى الأمم جميعا من بعدهم، ليقتدى الناس بهم فى التوحيد وحسن التوجه إلى الله تعالى والأعمال الصالحة، وهذا عين مقصود السورة وما دعت إليه [١].

وجه ارتباط الآية بسياقها:

جاءت الآية فى سياق تناول نتفا من قصة إبراهيم عليه السلام، ليقرر جانبا من فضل الله عليه وعلى بنيه، من حسن دعوته أبيه ومخاطبته له، وما تفضل به تعالى عليه بعد اعتزاله أباه وقومه فى الله عز وجل، حيث وهبه إسحاق ويعقوب وجعلهما نبيين، ووهبهم جميعا من رحمته، وجعل لهم ذكراً حسنا فى العالمين، ومن ثم فالآية ذات علاقة وثيقة بسياقها.

التحليل البلاغى:

يلتف النظم حول بيان فضل الله تعالى على إبراهيم وبنيه إسحاق ويعقوب بأن جعل لهم لسان صدق وثناء حسن فى العالمين، وعطفت الآية على قوله: (وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا) والهبة: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمى صاحبها وهابا، وهو من أبنية المبالغة، والوهاب من صفات الله، المنعم على العباد، والله تعالى: الوهاب والواهب »[٢] وهذا دال على أن هذه النعمة فضل محض منه تعالى دون سعى أو سبب بخلاف التعبير

(١) ينظر / ص٨٠ من هذا البحث.

(٢) لسان العرب / مادة / وهب.

بالرزق فى البيان القرآنى الذى يرتبط بالأخذ بالأسباب والوسائل كقوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ الملك: ١٥ وصيغة الماضى تدل على تحقق ما وهبوا فضلا منه تعالى ومنا.

والضمير فى (لهم) يعود إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبرز ضمير العظمة فى نظم الآية بصورة لافتة، فقد أسند إليه الفعل (وهب) و(جعل) وأضيف إلى (رحمة) مما يدل على عظمة الموهوب وعلو مكانته من سعة الرحمة وشمولها خيرى الدنيا والآخرة، ولذا جاءت الرحمة مطلقة دون تحديد بشيء، ومن علمائنا من جعلها النبوة، لأنها رحمة لهم ولمن أرسلوا إليهم، ومنهم من قال: هى المال والولد وتكون عامة فى كل خير دينى ودنيوى أوتوه[١]، والأخير أولى، لأن النظم الكريم ذكر نبوة الجميع صراحة، فكيف يعاد ذلك دون مناسبة، فالرحمة تشمل ما قبلها مما وُهِبَ، وما بعدها مما جُعِلَ، فكأنها ذكر عام بعد خاص، ثم خاص بعد عام بذكر ما بعدها، وهذا لون من تأكيد المعنى وتقريره.

ولما كانت نعمة الذكر الحسن والثناء الجميل عظيمة جليلة، اختيرت مادة الجعل (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) ذات المعانى المتعددة التى أشرنا إليها سابقا[٢] وأسند الجعل إلى الضمير الكريم (نا) لإيقاع هذا الفعل بكل ما يحمل من معان على ما تجلى به تعالى عليهم، وعبر باللسان عن الذكر الحسن مجازا مرسلا؛ لأنه آلته، وهو يفيد المبالغة فكأنه جعل لهم لسانا يمشى فى الناس مثنيا عليهم، مذكراً بفضلهم، وزيد فى هذه المبالغة بإضافة (لسان) إلى (صدق) مما يجعل للثناء بالخير كمالاً وقوة تأثير ومكانة عالية، ولذا جئ بقوله: (عليا) فشبه شرف اللسان ورفعة مكانته لأثره البالغ فى الناس بالمكان العالى، وحذف المشبه به، ودل عليه بقوله: (عليا) من العلو على سبيل الاستعارة المكنية.

الوصف بالعلو مجاز لشرف ذلك الثناء الحسن، وهذا ملمح مهم من ملامح تداخل المجازين: المرسل والاستعارة وتكاملهما مع جميع مكونات النظم الأخرى

(١) ينظر / جامع البيان فى تأويل القرآن /٨/ ص ٣٨٦، والكشاف /٣/ ص١١٠، والتحرير والتنوير / ٨ / ص ١٢٥.

(٢) ينظر / ص٢٣ وما بعدها/ من هذا البحث.

فى الوصول بالمعنى إلى غايته ونهايته، حيث لا يتطلب مزيدا، وفاء بحق المعنى، واقتضاء المقام، مما يجعل المتلقى مدركا جلال مكانة إبراهيم عليه السلام وولده، فيجلهم ويثنى عليهم، ويقتدى بهم، وينتقل بهذا الثناء جيلا بعد جيل تحقيقا لنعمته تعالى.

الموقع الثانى: فى سياق سورة (الشعراء)

وجاء فى قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾

مقصود السورة وعلاقة الآية به:

تظهر الآية الكريمة دعوة إبراهيم عليه السلام بأن يجعل الله له ذكراً حسنا وثناء طيبا فى الأمم المتعاقبة، فيذكر بتوحيده ربه، وتوجهه إليه، وطاعته له، وهو وجه من وجوه تضامت وتعاونت مكونة مقصودا عاما للسورة.

وجه ارتباط الآية بسياقها:

وردت الآية فى حلقة من قصة إبراهيم –عليه السلام– أمر النبى –ﷺ– بتلاوتها على قومه، وتضمنت هذه الحلقة تضرعه بأن يهبه ربه حكما، وأن يلحقه بالصالحين، وأن يجعل له ثناء حسنا فى الآخرين، إلى آخر ما احتواه دعاؤه ربه من سؤال، والآية مكون رئيس من مكونات قصته وضراعته عليه السلام فى هذه السورة.

التحليل البلاغى:

سبقت الآيات التى دعا إبراهيم فيها ربه بالثناء على الله الجليل: (رب هب لى حكما....) (الشعراء /٨٣ – ٨٥) والمناسبة قوية بين الدعاء والثناء، لما للثناء من أثر عظيم فى الإجابة فهو منه ثناء واستعطاف وقرب وتذلل، واقتضت المناجاة مجئ أسلوب الالتفات من الاسم الظاهر فى (رب العالمين) وما أعقبه من قبيل الغيبة، إلى الخطاب فى المناجاة والتضرع، ونكتته التناسق بين الخطاب وما تتطلبه المناجاة من ثناء وإجلال وتذلل وانكسار والخطاب فى ذلك أليق وأنسب، وهذا نمط عال تناسق مع ما جاء عليه نظم سورة الفاتحة كما هو

مشهور عند البلاغيين[١]، وزيدت المناجاة قربا وحبا وودا وحرارة بحذف أداة النداء، واختيار وصف الربوبية.

وفى هذا المقام الحميم القريب الجليل تأتى صيغة الأمر (اجعل) لغرض الدعاء، وهى تكشف عن رغبة ملحة وأمنية عارمة فى تحقيق ما يعو به ويرجوه وحصوله، وثقته فى ربه تعالى وقدرته القادرة على تلبية حاجته، وعبر باللسان مجازا مرسلا، وأضيف اللسان إلى (صدق) للتأكيد على أنه عليه السلام ما يبغى إلا وجه ربه تعالى باقتداء الناس به واتباعهم له فيما يقربهم من الله تعالى ويكتب لهم به الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة.

وجئ بـ (الآخرين) ليشمل كل من يأتى بعده إلى يوم الدين، والنظم يظهر رغبته عليه السلام فى الامتداد بالدين والخير والقيم لا بالنسب والخلف، وهذا لا يكون إلا من نفس عاشقة لمعالى الأمور، وقمة العبودية المتواصلة لله تعالى ، ولم يكن للدنيا وأعراضها وأغراضها أثر فى مناجاته عليه السلام.

من السمات البلاغية فى مجئ اللسان بمعنى الثناء الحسن

هذان موضعان جئ باللسان فيهما بمعنى الثناء الحسن مجازا مرسلاً، وخص إبراهيم عليه السلام وبنيه بالموضعين، مما يتسق وجانبا عظيما رسمه البيان القرآنى له وهو جانب حب الخير والارتباط به، وحب انتشاره فى الأمم من وراء ذكرهم الحسن له عليه السلام.

وسبقت آية سورة (مريم) نزولا[٢] وترتيلا، وهذا يشير إلى عظيم فضله تعالى على إبراهيم وبنيه، فقد تفضل عليهم وأحسن إليهم قبل السؤال والطلب، وكان للأسلوب الخبرى والإنشائى والتعبير المجازى استعارة ومجازا مرسلا دور عظيم فى تأكيد المعنى وتقريره وتصويره.

❁❁❁

(١) الكشاف /١/ ص ٦٥، والحركة الأسلوبية / د/ عبد الرازق محمد فضل / ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) ينظر / النظم الفنى فى القرآن / عبد المتعال الصعيدى / ص٢٥ / وما بعدها / مكتبة الآداب.

خاتمة

أقامت بنا الدراسة فى منبع الحق وروعته، ومنهل الهدى وصفائه ومربع الإيمان وجماله، فى ظلال البيان القرآنى وجلاله، الذى لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، والذى تعلو بلاغته،ولا تطاول فصاحته، وتمت بفضله تعالى دراسة « اللسان فى البيان الحكيم – موقعا ودلالة » دراسة بلاغية تحليلية، وقد خلصت إلى نتائج منها:

أولاً: تعددت المعانى اللغوية لكلمة اللسان، سواء كانت حقيقية أو مجازية، وكلها تدور حول كونه آلة الكلام وبيانه وفصاحته لأهميته فى ذلك.

ثانياً: بيان الأثر الخطير للسان فى دنيا الناس وآخرتهم، سواء كان فى مقامات ذم وتشنيع وتقبيح، أو مقامات حميدة نافعة، كالدعاء والتضرع وقراءة القرآن والدعوة إلى الله تعالى بلسان عربى مبين.

ثالثاً: جاء اللسان بمعناه الحقيقى فى ستة عشر موضعا (١٦) مع اختلاف المقام الذى وردت الكلمة فى سياقه، ففى مقام الذم والتشنيع جاءت الكلمة فى (٨) ثمانية مواضع، وفى مقام الدعاء والتضرع فى (٣) ثلاثة مواضع، وفى مقام التخويف والترهيب فى (٢) موضعين، وفى مقام المن والاعتبار فى (٢) موضعين، وفى مقام التربية والتوجيه فى موضع واحد، وكثرة ورود اللسان فى مقام الذم والتشنيع يؤكد للمتلقى خطر اللسان الآثم إذا لم يكف وتضبط حركته، ومجيئه فى مقامات أخرى صالحة يهدف إلى إيجاد البديل والتوجيه إليه، والظاهرة الأسلوبية الملموسة فى مجئ اللسان بمعناه الحقيقى هى تمهل الأسلوب وتباطؤه فى مقام الذم والتشنيع، وكانت الغلبة للجملة الفعلية، وكثرت صيغة المضارعة فيها، والسر البلاغى الظاهر هو الدلالة على تكرار الحدث من الفاعلين وتجدده منهم ومحاولة النظم تصويره للمتلقى ونقله إليه حيا مؤثرا للعظة والاعتبار. ثم توسطه فى مقام التخويف والترهيب حيث تراه بَيْنَ بَيْنَ ، فليس بالمتمهل البطئ ، وليس بالعجل الخاطف، ثم تعجله وتسرعه فى غير ذلك ، وكثرت الأساليب الخبرية المؤكدة،وكان للإنشائية عن طريق صيغة الأمر والنهى والاستفهام دور

بار فى نظم الآيات، كما جاء تشبيه تمثيلى واستعارات تصريحية تبعية ومكنية، ومن البديع وجدنا للطباق وجودا مؤثرا فى تجلية المعانى وتوضيحها.

رابعا: جاء اللسان بمعنى اللغة والبيان مجازا مرسلا لإفادة المبالغة وصولاً بالمعنى إلى غايته فى ستة مواضع (٦) وساعدته أساليب عديدة أهمها: القصر، وبخاصة عن طريق (إنما) وذلك لنكت بلاغية أهمها:

- تأكيد عربية البيان القرآنى وجماله وجلاله.
- تأكيد تيسيره تعالى للذكر الحكيم وتسهيله للمتلقى رحمة ومنا وفضلا .
- التعريض بالمكذبين، والتأكيد على أن العوج نابع من داخلهم هم لا مما جاءهم من رسالة واضحة ميسرة.
- أهمية اللسان فى جانب الدعوة إلى الله تعالى، فهو آلتها المفصحة عنها، والمبينة عن جمالها وجلالها.

خامساً: جاء اللسان بمعنى الذكر الحسن والثناء الجميل مجازا مرسلا فى موضعين خص بهما إبراهيم عليه السلام وبنيه، وذلك فى مقامين: مقام المن والإحسان. وفى مقام الدعاء والتضرع،وناسب الأول أسلوب خبرى يقرر تفضله تعالى على خليله وبنيه من بعده، وتوافق مع الثانى أسلوب إنشائى بصيغة الأمر المعهود فى مثل هذا المقام، واللافت اشتقاق الفعلين (جعل) فى الأول و(اجعل) فى الثانى من مادة الجعل، مما يشير إلى توفيق ربانى فى دعوة إبراهيم عليه السلام، إذ دعا بما شاءته له الربوبية من فضل وعطاء.

هذا وقد أنهيت كل مبحث بالسمات البلاغية الموجزة لما بث فى الدراسة، ويضاف إليها ما سطر فى صفحات البحث من خصائص أسلوبية، وصور بيانية، وفنون بديعية، وما أشير إليه من لطائف ودقائق، وإرشادات وتوجيهات نتيجة التلبث أمام خصوصيات المعانى ومكوناتها، وهى نتائج خاصة بكل مبحث، تجمع أطرافه، وتخضخص زبدته.

وأخيرا تلفت الدراسة إلي أمرين:

الأول: أهمية الإفادة من الدراسات البلاغية للبيان القرآنى فى التقويم والتوجيه والتربية وتزكية النفس، فهذه هى غاية البيان القرآنى وهدفه وهو ما حرصت الدراسة عليه .

الثانى: أهمية دراسة اللسان موقعا ودلالة فى البيان النبوى ثم الموازنة بين نتائجها وهذه، ليضاف إلى المكتبة البلاغية ما يفيد ويقنع ويمتع.

هذا وما كان فيه من فضل فمن الله وحده جل فى علاه، وما كان من خطأ أو تقصير أو نسيان فمن نفسى والشيطان، وإنى أتوب إلى الله منه وأستغفره، وأصلى وأسلم على سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه وعلينا وعلى والدينا معهم والحمد لله ب العالمين.

المصادر والمراجع

١- الإتقان فى علوم القرآن / السيوطى / المكتبة الثقافية / بيروت لبنان.
٢- الإتيان والمجئ – فقه دلالتهما واستعمالهما فى القرآن الكريم / د/ محمود حمدان / مكتبة وهبة / ط الأولى / ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
٣- تلخيص البيان فى مجاز القرآن / الشريف الرضي / ت/ على محمود مقلد / دار مكتبة الحياة / بيروت / سنة ١٩٨٦م .
٤- الجمان فى تشبيهات القرآن / لابن ثاقيا البغدادى / ت/ محمد رضوان الداية / دار الفكر المعاصرين / ط الأولى صـ٢٠٠٢م .
٥- أدوات التشبيه / د/ محمود حمدان / مطبعة الأمانة / ط١/ ١٤١٨هـ١٩٩٢م.
٦- أسرار البلاغة / عبد القاهر الجرجانى / ت/ محمود شاكر. مطبعة المدنى / ط الثالثة ١٩٩٢م.
٧- أسرار التكرار فى القرآن الكريم / الكرمانى / دار الاعتصام.
٨- أسرار الفصل والوصل /د/صباح عبيد دراز / مطبعة الأمانة / ط الأولى / ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
٩- أسلوب لاجرم ودلالته البلاغية فى اللغة والقرآن الكريم د/ السيد سلام / مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية عدد٢٣/ ٢٠٠٥م .
١٠-الأساليب الإنشائية فى القرآن الكريم /د/صباح عبيد دراز/ مطبعة الأمانة ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.
١١-إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز – فى ضوء البيان القرآنى / د/ محمود توفيق – دار الكتب الجامعية .
١٢-الإعجاز البلاغى فى الآيات الكونية (السموات والأرض) د/ السيد سلام/ مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية / عدد٢٤/ سنة٢٠٠٦م .
١٣-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعى / دار الكتاب العربى / لبنان.
١٤-الأفعال / السرقسطى /ت / حسين شرف، د/ مهدى علام / المطابع الأميرية.
١٥- الأفعال / ابن القطاع / عالم الكتب.

١٦- أفنان البيان / د/ الشحات محمد أبو ستيت / مكتبة وهبة.
١٧- الأقصى القريب فى علم البيان / أبو عبدالله محمد التنوخى – مطبعة السعادة /القاهرة.
١٨- البحر المحيط / أبى حيان الأندلسى / دار الكتب العلمية .
١٩- البديع من المعانى والألفاظ /د/ عبد العظيم المطعنى / المكتبة الفيصلية /١٤١٠هـ /١٩٨٩م.
٢٠- البداية والنهاية / ابن كثير / دار العقيدة.
٢١- البرهان فى علوم القرآن / الزركشى / ت/ مصطفى عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية.
٢٢- بغية الإيضاح / عبد المتعال الصعيدى / مطبعة الآداب/ القاهرة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٢٣- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى /د/ محمد ابو موسى / دار الفكر العربى .
٢٤- البلاغة والتحليل الأدبى /د/ أحمد أبو حاقة / دار العلم للملايين.
٢٥- التبيان فى إعراب القرآن / أبو البقاء العكبرى / المكتبة التوفيقية.
٢٦- التحرير والتنوير / الطاهر بن عاشور / دار سحنون / تونس.
٢٧- التسهيل لعلم التنزيل / الغرناطى الأندلسى / المكتبة العصرية ٢٠٠٣م.
٢٨- تفسير أبى السعود / دار إحياء التراث / بيروت لبنان.
٢٩- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم / د/ عبد العظيم المطعنى / مكتبة وهبة.
٣٠- تفسير القرآن العظيم / ابن كثير / مكتبة الدعوة الإسلامية ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
٣١- التفسير الكبير / للرازى / دار الفكر .
٣٢- توافق المعانى وتناسقها فى بانت سعاد – لكعب بن زهير – للباحث – مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية عدد(٢٥) مجلد ٢/ ٢٠٠٩م .
٣٣- جامع البيان فى تأويل القرآن / الطبرى / دار الغد العربى.
٣٤- الجنى الدانى فى حروف المعانى / الحسن بن قاسم المرادى / دار الآفاق الجديدة بيروت
٣٥- الحركة الأسلوبية /د/ عبد الرازق محمد فضل / مطبعة التركى / طنطا ١٩٩٦م.
٣٦- حاشية الدسوقى / ضمن الشروح / دار الكتب العلمية.

٣٧- خصائص التراكيب / د/ محمد أبو موسى. مكتبة وهبة.
٣٨- دراسات منهجية فى علم البديع / د/ الشحات محمد أبو ستيت / دار خفاجى للطباعة والنشر.
٣٩- دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجانى / ت / محمود شاكر / مطبعة المدنى / ١٤١٣ /١٩٩٢م.
٤٠- دلالات التراكيب / د/ محمد أبو موسى / مكتبة وهبة ط ١٤٠٨هـ / ١٩٧٨م.
٤١- ديوان أحمد شوقى / شرح وتعقيب / د / أحمد محمد الحوفى / دار نهضة مصر.
٤٢- روح المعانى / الألوسى / دار الفكر / بيروت.
٤٣- شذرات الذهب /د/ محمود توفيق / مكتبة النعمان الحديثة – شبين الكوم.
٤٤- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك / ت/ محمد محى الدين عبد الحميد /دار الفكر.
٤٥- شروح التلخيص / دار الكتب العلمية .
٤٦- صفوة التفاسير / محمد على الصابونى / طبع / السيد حسن الشرتبلى.
٤٧- العلم والفقه والمعرفة /د/ محمود حمدان / مكتبة وهبة / الطبعة الأولى.
٤٨- علم المعانى / د/ صباح دراز / مطبعة التركى / طنطا.
٤٩- فتح القدير / للشوكانى /مطبعة الحلبى ١٣٥٠هـ.
٥٠- فى ظلال القرآن / سيد قطب / دار الشروق / ط الخامسة والعشرون ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٥١- قصص القرآن / ابن كثير / ت / على بن إسماعيل الرشيدى / دار القصيدة.
٥٢- قضية الربط فى الجملة العربية / د/محمد السيد البغدادى / مطبعة الأمانة ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م
٥٣- الكشاف / جار الله الزمخشرى/ ضبط يوسف الحمادى /مكتبة مصر.
٥٤- كلا – موضعها ودلالتها فى الذكر الحكيم / د/ إبراهيم على حسن داود / مكتبة كلية اللغة العربية – المنوفية.
٥٥- لباب النقول فى أسباب النزول / السيوطى / ت / أبو عبد الله محمود بن الجميل / مكتبة الصفا.
٥٦- لسان العرب / ابن منظور / دار صادر.

٥٧- لمحات من هدى النبى -ﷺ- وبلاغته /د/ عبد الغنى بركة / مؤسسة التعاون.
٥٨- مباحث فى علوم القرآن / مناع القطان / مؤسسة الرسالة / ط الثانية عشر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٥٩- المجاز المرسل فى لسان العرب – لابن منظور / دراسة بلاغية تحليلية د/ أحمد هنداوى هلال مكتبة وهبة /ط٢/ ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٦٠- مختار الصحاح / عبد القادر الرازى / ت / محمود خاطر / دار الحديث / القاهرة.
٦١- المطول على التخليص / سعد الدين التفتازانى / المكتبة الأزهرية للتراث.
٦٢- معجم ألفاظ القرآن الكريم / مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
٦٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبدالباقى / دار الحديث .
٦٤- مع النظم القرآنى فى سورة النور/ د/ الشحات أبو ستيت / مكتبة وهبه .
٦٥- معنى اللبيب / ربن هشام / ت/ محمد محى الدين عبدالحميد / مطبعة المدنى .
٦٦- مفتاح الإعراب / د/ محمد أحمد مرجان / مطبعة محمد على صبيح /ط٤/ ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.
٦٧- مفتاح العلوم / السكاكى / ضبط وتعليق / نعيم زرزور / دار الكتب العلمية.
٦٨- المفردات فى غريب القرآن / الراغب الأصفهانى / إعداد / محمد أحمد خلف / مكتبة الأنجلو المصرية.
٦٩- مقاييس اللغة / ابن فارس / مطبعة الحلبى / ط الثالثة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
٧٠- ملاك التأويل / أحمد بن الزبير الغرناطى/ت/ محمود كامل أحمد / دار النهضة بيروت.
٧١- من أساليب القرآن /المجاز العقلى / د/ عبد الرازق محمد فضل/ مطبعة التركى / طنطا.
٧٢- من بلاغة النظم العربى / د/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة / عالم الكتب.
٧٣- مناهل العرفان فى علوم القرآن / محمد عبد العظيم الزرقانى / ت أحمد حلبى / دار المعرفة.
٧٤- النبأ العظيم / د/ محمد عبد الله دراز /ط الرابعة / دار القلم / الكويت.

٧٥- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور / البقاعى / دار الكتب العلمية.
٧٦- النظم الفنى فى القرآن / عبد المتعال الصعيدى / مكتبة الآداب.
٧٧- نونيتا ابن زيدون وأحمد شوقى / دراسة بلاغية تحليلية وموازنة / رسالة ماجستير / للباحث / كلية اللغة العربية – إيتاى البارود.
٧٨- الوجوه والنظائر / الدافغانى /دار الكتب العلمية .

فهرس الآيات

الآيـــــــــــــــــــة	السورة	الصفحة
وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ	آل عمران/٧٨	٧٠٢
وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ....	النساء/٤٦	٧٠٧
لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ	المائدة/٧٨	٧١٣
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ....	إبراهيم/٤	٧٦٧
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ....	النحل/٦٢	٧١٧
لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ...	النحل/١٠٣	٧٧١
وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ	النحل/١١٦	٧٢١
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا....	مريم/٥٠	٧٨٨
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا	مريم/٩٧	٧٧٤
وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى....	طه/٢٧	٧٣٩
إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم	النور/١٥	٧٤٧
يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم	النور/٢٤	٧٥١
وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى	الشعراء/١٣	٧٤١
وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ....	الشعراء/٨٤	٧٨٧
بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ....	الشعراء/١٩٥	٧٧٧
هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ....	القصص/٣٤	٧٤٣
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ	الروم/٢٢	٧٥٤
فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ....	الأحزاب/١٩	٧٢٣
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ	الدخان /٥٨	٧٧٩
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا	الأحقاف/١٢	٧٨١
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ....	الفتح/١١	٧٢٩
وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ....	الممتحنة/٢	٧٣٤
لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ....	القيامة / ١٦	٧٦٠
أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ....	البلد/٩	٧٥٨

فهرس الموضوعات

الموضــــــــــــوع	الصفحة
تقديم	٦٩٧
المبحث الأول	٧٠٠
اللسان ومقام الذم والتشنيع	٧٠١
ختام	٧٣٨
اللسان ومقام الدعاء والضراعة	٧٣٩
ختام	٧٤٥
اللسان ومقام التخويف والترهيب	٧٤٧
ختام	٧٥٤
اللسان ومقام المن والاعتبار	٧٥٤
ختام	٧٦٠
اللسان ومقام التربية والتوجيه	٧٦٠
ختام	٧٦٤
من السمات البلاغية للبيان القرآنى عن اللسان بمعناه الحقيقى	٧٦٤
المبحث الثانى	٧٦٦
من السمات البلاغية لمجئ اللسان بمعنى اللغة والبيان	٧٨٤
المبحث الثالث	٧٨٦
من السمات البلاغية فى مجئ اللسان الثناء الحسن	٧٩١
الخاتمة	٧٩٢
فهرس المصادر والمراجع	٧٩٥
فهرس الآيات	٨٠٠
فهرس الموضوعات	٨٠١